محمد عبدالعزيز الثعالبي
سيرة المجاهد والمصلح الإسلامي

عبدالرحيم الخليفي*

تمهيد: المشهد العام في تونس في عهد الثعالبي:

عندما دب الضعف في الدولة العثمانية إثر انهزام أسطولها في معركة "نافارين" (1827م) في بلاد اليونان التي كانت تطالب بالاستقلال عنها –عن الدولة العثمانية–، وكان يساندها في هذا المطلب القوى الحاقدة: فرنسا وبريطانيا وروسيا. كانت تلك الهزيمة –إضافة إلى الاضطرابات الداخلية (ثورة الأرمن)، والخارجية (دول البلقان وضغط الدول المعادية)– إيذانا مبكرا بتفككها، بالرغم من وقوف تونس ومصر إلى جانبها في تلك المعركة، مما جعل ظلها يتقلص– تاركة الإيالات التابعة لها تواجه مصيرها بنفسها، ومن بين هذه الإيالات، تونس التي كانت تدين بالولاء للباب العالي منذ فتحها سنة 1571م. ومنذ أواخر القرن الثامن عشر بدأ الاستخراب الغربي بالتدخل المباشر في هذه الإيالات الإسلامية، حيث تدخل الفرنسيون في مصر 1898، ثم الإنكليز 1914، وتدخلت فرنسا في الجزائر سنة 1830، ثم في تونس سنة1881م، وتدخلت إيطاليا في ليبيا سنة 1911. ثم جاءت اتفاقية سايكس– بيكو 1916 إثر ما يسمى بالثورة العربية الكبرى، ثم جاء وعد بلفور 1917... وهكذا تقاطر الاستخراب إلى أنحاء العالم الإسلامي مشرقا ومغربا.

دخلت تونس – كأخواتها من إيالات العالم الإسلامي– منعرجا تاريخيا كبيرا لون أطياف الحياة العامة للمجتمع فيها: السياسة، والجيش، والتعليم وحتى العمران، زيادة على

* ماجستير في علوم التربية، وماجستير في الآداب. يعد حاليا دكتوراه في التربية. elkhalify@hotmail.com

الإدارة وبقية النظام الحياتي. فأصبحت– تونس– تعاني من ضائقة اقتصادية طالت القطاع: الفلاحي والصناعي والتجاري بسبب الامتيازات التي منحها باي تونس المشير محمد (1855– 1859) لفرنسا ولإنكلترا. واستمرت الأوضاع العامة متردية في البلاد إلى بداية عهد أحمد باشا (تولى حكم تونس: 1837– 1855) الذي كان يميل إلى الإصلاح الشامل، حتى إنه أنشأ المدرسة الحربية (1840م قبل الاحتلال) في مدينة "باردو" التونسية لتقوية الجيش بٱعتباره حامي الحمى، واستعان بكفاءات أجنبية من إيطاليا وإنكلترا وفرنسا، فعهد بإدارتها إلى المشرف الإيطالي "كاليفاريس" (1808– 1871). فأما اللغة العربية فقد أناط عهدتها بالشيخ محمود قبادو (1871–1815م) وهو من أعلام جامع الزيتونة المعمور. وأما الإشراف العام على مشروع الإصلاح هذا فكان لخير الدين باشا (1822– 1890م) المصلح الشهير صاحب كتاب "أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك" الذي رأى أن هناك فرقا شاسعا بين حال العالم الإسلامي وبين الغرب على صعيد العلوم، وكان يرى أن هذا التأخر يمكن تداركه انطلاقا من التعليم الذي يرى ضرورة إصلاحه وتجديده بٱستمرار، بما يتوافق والعصر الذي تعيشه المجتمعات.

كان هذا الاتجاه المتطلع نحو المستقبل يتمثله بعض المثقفين وذوي السلطان في تونس، لكن بالرغم من امتلاك البلاد التونسية قابلية التقدم إلا أنها كانت لا تمتلك روح الاستجابة السريعة، وهذا ما جعل الاستخراب الفرنسي يثب عليها معتبرا إياها فريسة سهلة المنال، فدخلها –كما هي طبيعة أي احتلال في كل عصر– تحت شعارات خلابة، ظاهرها البناء وباطنها الاستغلال والتدمير. ولم يكن الجيش التونسي يملك ما يكفي من مقومات الصمود وصد المخربين الفرنسيين، فوقع باي تونس محمد الصادق يوم 1881/5/12م مع الجيوش الفرنسية معاهدة باردو (نسبة إلى مدينة باردو التونسية)، والجيش الفرنسي يحاصر قصره (قصر السعيد)، ثم كرستها اتفاقية المرسى سنة 1883. وكانت اتفاقية باردو مخالفة لعهد الأمان (1857) والدستور (1861) اللذين يؤكدان الحرية والحقوق الأساسية لمواطني تونس ورعاياها.

خلال هذه الأحداث المتلاحقة كان الثعالبي صغيرا، حيث كان عمره لا يتجاوز سبع سنوات (ولد في مدينة تونس سنة 1874م). وقد روى حادثة مؤثرة عند دخول علوج

الاستخراب الفرنسي، –دونها فيما بعد– قال: "كنت صغيرا ورأيت أمي تبكي فسألتها السبب، فقالت: أما رأيت الفرنج مروا من هنا ؟! وهؤلاء لا يخرجون إلا بالحرب!".. وفي إحدى خطبه السياسية في مصر يروي لنا قصة أخرى مؤثرة مع جده: "...وكنت في طريق قريب من بيتنا وأنا صغير حينما دخل الجيش الفرنساوي تونس، فرأيت الكآبة تخيم على وجوه التونسيين، فاستغربت ذلك، وكنت أجهل السبب، وذهبت إلى جدي فوجدته يبكي لأول مرة، فقلت مندهشا: لم هذا البكاء يا جدي؟! هل ضربك أحد؟ قال: نعم، إن البلاء انصب علينا فيجب أن نرحل من هذه البلاد التي نعيش فيها، ولكني قد بلغت من الكبر عتيا، لا أستطيع أن أرحل، وإني خائف وجل أن تصيروا– في المستقبل– فرنسويين، وكشف فأراني محل رصاص في صدره، فقلت: سأضرب الذي ضربك!"

أجهز المحتل في أول احتلاله على موطن القوة في الأمة آنذاك وهو التعليم –الذي كان خيرالدين يرى فيه مكمن الداء الواجب علاجه– فبادر الاستخراب بتعيين أحد الفرنسيين المستعربين على "إدارة المعارف" –التي هي بمثابة وزارة التربية والتعليم في عصرنا الحالي– هو "لويس ماشويل" الذي أصبح منظر التربية والتعليم والثقافة في البلاد التونسية، حتى إن تدخله طال التعليم في جامع الزيتونة.[1] ووضع "ل. ماشيول" الأولوية للغة الفرنسية، مقدما إياها على اللغة العربية، بل إنه "قطع مادة الثقافة العربية بتاتا؛ إذ جعل اللغة الفرنسية أداة المعرفة العامة، وأبقى اللغة العربية مادة تعليم لا تقصد إلا لذاتها، مع خلل فادح في طريقة تعليمها... فأصبحت اللغة الفرنسية الأداة الوحيدة للتعليم التونسي، وسدت الوسائل على من لا يتعلمها."[2] ويذكر الثعالبي في هذا السياق: أن "سبيل المقاومة... هو تأسيس ثقافة إسلامية عربية، لأن المدارس كانت فرنسوية تعلم فرنسويين، مع أن الحكومة التونسية أنشأتها لتعليم أبناء التونسيين. وتعلمون أن التربية الحقة ليست في الدروس بل في التوجيه وسبك العقلية والفكر وتربية الضمير... وكان أساتذة المدارس يؤلفون كتب الدراسة، ومنها كتب التاريخ العربي، ويقولون فيها إن هذه البلاد هي موطن البربر، ثم جاء الرومان وجعلوا منها جنة فيحاء، فلما جاء العرب خربوا ودمروا وهم لصوص سلبة، فأبادوا هذه الجنة

---

[1] ابن عاشور، محمد الفاضل. **الحركة الأدبية والفكرية في تونس**، ط3، تونس: الدار التونسية، 1983، ص46.

[2] المصدر السابق، ص146.

وأقاموا الخراب والدمار"!.. ذلك لأن الاستخراب يعلم قيمة اللغة والتاريخ ومدى ارتباطهما بالفكر والذاكرة الحضارية لأي أمة، وعمق تأثيرهما في العقلية العامة. هذه السياسة التربوية تركت أثرها السلبي الواضح على التعليم في تونس وأمثالها حتى اليوم، وأصبح منذ ذلك الوقت تدريس المواد العلمية وحتى العلوم الإنسانية باللغة الفرنسية إلى عهد قريب. وحتى في أيامنا هذه فإن تدريسها باللغة الأجنبية، كما هو شأن بقية البلاد الإسلامية المغلوبة على أمرها، فأصبحنا ندرس علومنا وتقنيتنا العربية بلغة الأجنبي الذي قام بعملية سطو على هذه العلوم من آبائنا، وكانت سببا في نهضته. ومنع جامع الزيتونة[3] –الذي كان يدرس كل العلوم باللغة العربية– من تحديث مناهجه بالرغم من أنه أقدم جامعة في العالم الإسلامي وأول جامعة في العالم تمنح الشهادات العلمية لطلابها. وبهذا الفعل الاستكباري قطعت سبل التقدم على أعرق مؤسساتنا العلمية التي كانت تنمو نموا طبيعيا، حتى إن الشيخ محمد عبده (1849–1905) عندما زار تونس أول مرة سنة 1883 –أي بعد التخريب الفرنسي بسنتين تقريبا– أشاد بتقدم هذا الصرح العلمي، فقال: "إن أهل تونس سبقونا [يعني نحن أهل الأزهر] إلى إصلاح التعليم حتى كان ما يجرون عليه في جامع الزيتونة خير مما عليه أهل الأزهر"[4]. وبالرغم من الاستكبار الأجنبي، تخرج من الزيتونة مشايخ كبار كان لهم دور كبير في التأثير على الحياة السياسية والثقافية في تونس ومقاومة المحتل، من بينهم صاحب هذه السيرة: محمد عبدالعزيز الثعالبي .

من المؤسسات الأخرى التي كانت تمثل معينا لتونس قبل هجوم المحتل الأجنبي، نجد مدرسة "باردو" المعروفة باسم "المدرسة الحربية"، التي كانت تدرس العلوم الحربية والعلوم الأخرى، كالهندسة والرياضيات والجغرافيا واللغات (الفرنسية والإيطالية). وفي محاولة للمحافظة على شخصيتها الحضارية، عمد الشيخ محمد قبادو إلى تحرير الدروس باللغة العربية، ونقل إليها العديد من الكتب العسكرية.[5] ومن المؤسسات التعليمية المهمة نجد أيضا "المدرسة الصادقية" التي أسسها خير الدين سنة 1874م– ضمن مشروعه المتمثل في إنشاء دولة تونسية حديثة–

---

[3] رضا، محمد رشيد. **مجلة المنار**، القاهرة: دار الوفاء، 1972، ج1، ص7.

[4] أسسه حسان بن النعمان الغساني سنة 79هـ/698- 699 م.

[5] ابن أبي الضياف، أبو العباس أحمد. **إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان**، تحقيق أحمد عبدالسلام، تونس: الجامعة التونسية، 1971، ج6، ص70.

وكان هدفها تنشئة الطلاب التونسيين على المهن الحرة.[6] وبعد الاحتلال ظهرت "المدرسة الخلدونية" التي تشارك في تأسيسها سنة 1892م نخبة من التونسيين على رأسهم البشير صفر، وكانت مكتبتها تضم مائتي مجلد وألف مجلد، وبلغ عدد روادها خمسة آلاف مطالع. لكن المدرسة الصادقية والخلدونية ومدرسة باردو لم تبلغ أي منها مكانة جامع الزيتونة الذي كانت له مكانة خاصة في وجدان مسلمين المغرب العربي والعالم الإسلامي عامة، فهو منارة يقصدها طلاب العلم من كل صوب، ويخشاها المحتل.

كأي مرحلة من مراحل التاريخ وكأي بلاد أخرى، وقعت تونس تحت تجاذبات التيارات الثقافية والسياسية المتنوعة كالتيار الإصلاحي والتيار المحافظ والتيار التغريبي. ومن رواد الاتجاه الإصلاحي جماعة "الحاضرة" في تونس (تأسست سنة 1888)، وأبرزهم الشيخ سالم بوحاجب (1828 – 1924) والشيخ محمد السنوسي (1850–1900) وهما خريجا الزيتونة، والبشير بن مصطفى صفر (1864– 1919) وهو خريج الصادقية، وقد أصدروا جريدة تحمل الاسم نفسه: "الحاضرة"، وهي منبر تنويري نهضوي منفتح، وهي لسان حال الإصلاحيين. وكان هذا التيار " أكثر إخلاصا لتقاليد البلاد، وأكثر استقلالا عن السلطة، ويرتكز لمذهب الإصلاح المحلي– الذي قاده الشيخان: قبادو، وبيرم– وللحركة الجديدة. وقد عارضته الإدارة، لأن مصادره لم تكن تدين بشيء لليبرالية الغربية، ولأنه يتوجه إلى أناس لم يكن في وسع النظام الجديد دمجهم."[7] أما الاتجاه المحافظ، فهو يرى الاكتفاء بإدارة الشؤون الدينية بعيدا عن السياسة. وأما التيار التغريبي فكان يدعو إلى الأخذ بكل شيء عن الغرب لتصبح البلاد في صفوف الدول المتقدمة حسب زعمه.

أولا: الشيخ عبد العزيز الثعالبي.. السيرة والتاريخ:

هو محمد عبد العزيز بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي. ينحدر من أسرة جزائرية. جده عبد الرحمن بن محمد، من كبار علماء وأعيان الجزائر

---

[6] ابن الخوجة، محمد. **صفحات من تاريخ تونس**، تحقيق: حمادي الساحلي، الجيلاني بن الحاج يحيى، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1986، ص309.

[7] العروري، عبدالله. **تاريخ المغرب: محاولة في التركيب**، ترجمة: ذوقان قرقوط، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات، 1983، ص360.

المشهورين، وتولى القضاء على غير رضى منه، له أكثر من تسعين مؤلفا، منها "الجواهر الحسان في تفسير القرآن. ولد محمد عبدالعزيز الثعالبي في تونس سنة 1874م، وعاش في كنف جده الذي ألحقه بأحد الكتاتيب، حيث حفظ القرآن الكريم وواصل دراسته التمهيدية على يدي مدرس خاص علمه مبادئ اللغة العربية والعقيدة، ثم التحق بالمدرسة الابتدائية في محلة "باب سويقة" بالعاصمة تونس، بعدها ألحقه والده بجامع الزيتونة المعمور وعمره لا يتجاوز أربع عشرة (14) سنة. لكن الذين أرخوا له اختلفوا في الدرجة العلمية التي بلغها، فيذكر بعضهم أنه حصل على شهادة "التطويع" سنة 1896. ويروى أنه أول من درس في الزيتونة "العلوم العربية والفقهية والنقلية والعقلية...، وكان ينتقد كتب التدريس، ودروس مشايخه، ويكثر من أسئلتهم والاعتراض عليهم، مما نفر بعضهم منه، ومن مشاغبته"[8]. ويذكر آخرون أنه انقطع عن الدراسة في الزيتونة قبل حصوله على التطويع، لأنه لم يكن يرى نفسه في حاجة إلى تلك الشهادة التي لا بد منها لمن كان يرغب في الانتماء إلى الوظيفة العمومية، أما الشيخ الثعالبي نفسه فلم تكن له أي رغبة في ذلك. ويذكر أحدهم ممن أرخوا له أنه منح شهادة التطويع لكنها سحبت منه وأسقط حقه، إذ اتهمته القوى المحافظة بالزندقة والإلحاد، فحوكم وجرد من شهاداته وسجن[9].

لقد كان الثعالبي طموحا له رغبة في تغيير الواقع المتردي الذي تشهده الأمة بسبب الاستخراب الفرنسي ومن يدور في فلكه، وكان يرى أن القلم لا يقل حدة عن السيف، فبدأ ينشر أفكاره النهضوية والتنويرية المتحررة ويبثها في "المقالات الطويلة الشيقة ويرسلها إلى الصحف المصرية كالنيل، والمقياس والفيوم... مستخدما في ذلك إمضاءات مختلفة تجنبا للشهرة"[10] إلى أن وصلت به القناعة، وكان في العشرين من عمره –أو لعل الظروف أصبحت أكثر ملاءمة– بضرورة الانضمام إلى سلك الصحافيين الأحرار، فبدأ يحرر الفصول والمقالات

---

[8] الفورتي، البشير. **أعلام النهضة الأدبية**، تونس: د.ن، 1952، ص42.

[9] الجنحاني، الحبيب. "الحركة الإصلاحية في تونس"، **حوليات الجامعة التونسية**، ع6 (1969)، ص160. وتفرد الجنحاني –على حد علمنا– بهذه الرواية.

[10] الجنحاني، الحبيب. "الحركة الإصلاحية في تونس"، **حوليات الجامعة التونسية**، مصدر سابق، ص160.

في الصحف التونسية الصادرة آنذاك، وانتهى به إلى تأسيس جريدة أطلق عليها اسم "سبيل الرشاد."[11]

صدر العدد الأول من "السبيل" بتاريخ 29 جمادى الثانية 1313هـ الموافق لـ 1895/9/16م، كان شعارها: "جريدة علمية أدبية سياسية تاريخية "، وهذا شعار جامع للثقافة والسياسة والتاريخ، وقد افتتح العدد الأول منها بقوله: " شاقني داعي الحرية، وهزتني الغيرة الوطنية إلى إصدار جريدة عربية إسلامية دأبها النصح والإرشاد...". وكان الشيخ الثعالبي يحرر بنفسه أكثر مقالاتها طول عامها الأول وما صدر من أعدادها خلال العام الثاني. ويذكر أنها انتقدت في عددها السابع (25 رمضان 1313هـ/ 8 آذار1896م) فتوى لشيخ الإسلام أحمد بن الخوجة دون التصريح باسمه، ولكن "شيخ الإسلام" فهم أنه هو المعني بالتعريض، فوجه رسالة إلى الكاتب العام الفرنسي " روا " –المعروف، كأي محتل ماكر، بعدائه لكل مسلم غيور– طالبا منه إيقاف الجريدة التي يرى أنها أهانته، ومما جاء في تلك الرسالة: "... إن هناك إنسانا يقال له عبد العزيز الثعالبي، أحدث "جرنالا" تجرأ فيه على مقام المشيخة الإسلامية بجهله المظلم وخطابه الفاحش،... فنرغب منكم أيها الصديق الحازم [روا] المبادرة لتعطيل هاته الجريدة، والانتصاف من صاحبها، لينزجر هو وأمثاله عن أمثال هاته التصورات الصادرة عن غير إدراك". كما عرض الشيخ الثعالبي في العدد الثامن بقاضي "مجاز الباب" (وهي محلة بضواحي تونس) متهما إياه بـ"تجاوزه حدود وظيفته القانونية " ومنذرا إياه –إن لم يرتدع– بنشر تفاصيل تجاوزاته، فشكاه القاضي إلى الوزير الأكبر/ محمد العزيز بوعتور، الذي أصدر أمرا بإيقاف الجريدة.

ضاقت السبل بالشاب عبدالعزيز الثعالبي، ولم يسمح له بالسفر؛ إذ إنه حرم من حق

---

[11] يذكر الشيخ الثعالبي أنه وُوجه برفض طلبه أكثر من مرة من قبل السلطات المحتلة بإصدار جريدته هذه في أول الأمر، بالرغم من أن هناك يهوديا تونسيا واسمه "مسعود معارك" قدم طلبا– بعد الثعالبي – لإصدار جريدة تحت اسم (الحقيقة) باللغتين العبرية والعربية، فجاءه الرد سريعا، مع أن المسألة واحدة كما يقول الثعالبي. وقد كُتب على طلب الثعالبي بخط اليد العبارات التالية: "يُحفَظ بالدوسي بصفة أن كاتبه سيرته غير حميدة، طبق ما عرف به شيخ المدينة حين سُئل عنه عند طلبه للمطلب المذكور". أما اليهودي مسعود معارك فقد كُتب على سجله عندما راجعه الوزير الأكبر بتاريخ 1895/8/1 بأن سيرته حسنة بتوقيع يوسف جعيط. صدرت "الحقيقة" في غرة أيلول 1895، في حين بقي الثعالبي من الشهر السادس (حزيران) إلى الشهر الثاني عشر 1895 ينتظر الترخيص، لكن دون جدوى.

الحصول على جواز سفر، لكن الشيخ كان يتميز بالذكاء ولا يعرف الاستكانة أمام السلطات التونسية الجبانة التي لا تجرؤ على القول: لا للاحتلال الأجنبي الغاشم!.. فتوجه إلى طرابلس الغرب برا. وهناك- بعد إقامته مدة قصيرة- لفت إليه أنظار العلماء، فكلف بإلقاء بعض الدروس درت عليه بعض المال مما مكنه من السفر إلى اليونان، ثم إلى الآستانة (كما ورد بمذكراته، ص9)، حيث تمكن من الاطلاع على الشؤون العامة هناك، وملاقاة كبار رجال الإسلام... والتعرف إلى آرائهم حول القضايا الإسلامية والمشكلات السياسية في الشرق (المذكرات) وتعرف إليه أبوالهدى الصيادي (1849- 1909) وهو شيخ مشايخ الباب العالي في عهد السلطان عبدالحميد الثاني (عندما كان الرجلان السلطان والصيادي على توافق). وأدرك الصيادي قيمة الثعالبي فاقترح عليه منصبا رفيعا، لكن الشيخ الثعالبي رفضه لأنه -كما يذكر هو نفسه في مذكراته-"لم يكمل تكوينه بعد، ولا يزال ظمآنا لملاقاة الرجال، والتعرف بالبلدان"، كما عرضت عليه مديرية الأوقاف بالحجاز فرفض، وكذلك عرض عليه منصب قاضي بيروت فلم يقبل أيضا. كما التقى بالسلطان عبدالحميد الثاني، وجمال الدين الأفغاني، وحسن حسني الطويراني (1850-1897) صاحب "مجلة الإنسان" (1884-1890) وكتاب "النصيح العام من لوازم الإنسان"، كما التقى بثلة أخرى غير هذين الرجلين.

رحل الثعالبي من الآستانة إلى القاهرة ليتتلمذ على يدي الشيخ محمد عبده في التفسير والمنطق،[12] وتعرف إلى أعلام الفكر آنذاك: عبدالرحمن الكواكبي (1854-1902)، والشيخ رشيد رضا (1865-1935)، والشيخ علي يوسف(1813-1863) (وهو صحفي وسياسي مصري صاحب جريدة "الآداب")، وغيرهم... فوجد بين هؤلاء العلماء المحبة والتبجيل، حتى أن جريدة "الموسوعات" طلبت منه كتابة مقالة يبث فيها آراءه النيرة حول مستقبل العالم الإسلامي، وقد استجاب فنشرتها بإمضاء "سائح مغربي"، ونشر مقالة آنذاك تحت عنوان: "الاتحاد والدين ومستقبل الإسلام" بتاريخ غرة ربيع الأول 1317هـ/ 9 يوليو 1899م. فكانت القاهرة بالنسبة للشيخ الثعالبي نقطة الانطلاق إلى العالم، فمنها زار إسطنبول

---

[12] الفورتي، البشير. **أعلام النهضة الأدبية**، مصدر سابق، ص43.

والأناضول والعراق وسوريا والنمسا وإيطاليا والخرطوم، وقد حاول إنشاء هيئة كتاب لتأليف كتاب عن تاريخ الإسلام[13] كما يذكر في مذكراته، لكن عودته من القاهرة إلى تونس سنة 1902 حالت دون ذلك. عاد وهو "غريب الشكل والنزعة والمنطق والقلم، يتكلم بأفكار جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، ويعجب بالكواكبي، وحسن حسني الطويراني، وعلي يوسف، ويدعو إلى التطور والحرية، وفهم أسرار الدين وأسرار الوجود.. حتى أحاطت به ثلة من أهل العلم والأدب، "فكان ينتقل بهم ناديا سيارا"- [بتعبير ابن عاشور]- فكان موقفه الجريء "أول اصطدام بين النخبة الملتزمة والقوى الرجعية" كما يذكر الجنحاني.[14]

من تونس توجه إلى الجزائر، ثم إلى المغرب الأقصى، وراودته فكرة إصدار جريدتين: واحدة في المغرب والأخرى في الجزائر عند استحالة الأولى، لنشر الأفكار التنويرية والحضارية. فكانت هذه الأفكار والأنشطة من أهم الأسباب التي دعت مجموعة من المحافظين في تونس إلى توريطه وإثارة قضية ضده- عند رجوعه من المغرب-خوفا من أفكاره الإصلاحية وجرأته عليهم. لكن، بما أنه لا توجد آنذاك مطبعة في المغرب اتصل بالوالي العام الفرنسي بالجزائر "شارل جونار" -حسب رواية صديق الثعالبي المحامي سيزار بن عطار- وعرض عليه فكرة جريدة ناطقة باللغة العربية. لكن مشروعه الصحفي هذا، ير النور بالرغم من تشجيع هذا الوالي العام الفرنسي في الجزائر للفكرة، والذي كان يزعم أنه من دعاة التقارب بين المسلمين والفرنسيين، وكان الشيخ يعرف مكره، وبالرغم من ذلك أراد الاستفادة من هذا الشعار الذي يدعيه ليضعه أمام الواقع، فإن قبل فبها ونعمت، وإن رفض يكون قد كشف حقد هذا الحاكم الفرنسي أكثر مما هو مكشوف، وبين زيف ادعاءاته.

عندما لم يتمكن الثعالبي من إنجاز مشروعة المذكور، عاد إلى تونس (سنة 1904م)، وحاول

---

[13] وكانت الهيئة تضم: محمد عبدالعزيز الثعالبي ، أحمد بوشاسكي (أمين مجلس التنظيم)، أحمد بك تيمور، عيسى بك بهجت (مدير الدار الإسلامية) رفيق بك الأكبر، حقي بك، محمد فريد، حافظ بك سلطان، عصمان بك طالب رفعت، إسماعيل باشسيرسك (مدير المدارس العسكرية) عمر بك لطفي (أستاذ القانون) وإسماعيل بك (المؤرخ). لكن لم يُكتَب لها النجاح وبخاصة حين غادر الثعالبي إلى تونس.

[14] الجنحاني، الحبيب. "الحركة الإصلاحية في تونس"، مصدر سابق.

مرة أخرى إكمال مشروعه (في 1904/1/20م) مع عدوه اللدود الكاتب العام "م. روا"، الذي صادر "سبيل الرشاد" قبل سبع سنوات، للحصول على رخصة من جديد. لكن بلا جدوى!. وكان الوشاة والرقباء يتعقبون كلام الثعالبي وعلاقاته الاجتماعية" وبدأ الناس يلتقطون من كلامه سقطات في مسائل الخلاف بين الصحابة والأولياء والكرامات ويشيعونها على وجهها أو على غير وجهها، حتى بلغت أسماع كبار الشيوخ الناقمين على التطور فأثارتهم ثورة أدمجت الخلدونية والمنار والثعالبي، وتقدمت بدعوى إلى النيابة العمومية، وجرت المرافعات والرعاع يترصدون الثعالبي في ذهابه إلى المحكمة ورجوعه يهاجمونه بالسب والأذى. ثم حكم عليه بالسجن، فكان أول مظهر لتمييز الحركة الفكرية الجديدة وإقامة الفوارق بينها وبين مناهج التفكير السابقة، وكان ذلك عاملا على تكوين عطف الكثيرين عليه،"[15] وأخذت تلك المحاكمة صدى سياسيا ودينيا واسعا سنعرض له لاحقا.

كان الثعالبي واعيا بالقضية الدينية، وأنها لا يمكن فصلها عن السياسة، وأنه لا يمكن الاستغناء عن الخلافة الإسلامية، بل حتى وإن كان هناك من مطلب استقلالي فلا بد أن يكون في إطار الخلافة على غرار الحزب الوطني المصري الذي أسسه مصطفى كامل (1907). ومثلما كان واعيا بمثل هذه القضايا، فإن الاحتلال الفرنسي وباي تونس والمشايخ كانوا واعين بخطورة هذا الرجل الذي يهدد مصالحهم الخاصة، فلم يكن مستساغا لديهم السكوت على أنشطته، فدبروا مؤامرة ضده لتأليب العوام عليه والتشنيع به لتشويه سمعته وأفكاره، مما جعل المظاهرات تنطلق منددة به وناعتة إياه بالكفر والإلحاد![16]، وهذا فصل جديد من فصول المعركة التي قادها الثعالبي خلال مسيرته الطويلة.

ثانيا: محاكمة عبد العزيز الثعالبي (1904):

للثعالبي مع هذا النوع من المحاكمات تاريخ. أما هذه المحاكمة، فتعود جذورها إلى ما قبل سنة 1904 بشهور، أي قبل سفره إلى المغرب، وكان قد اتهم بأنه صاحب المقال المنشور بـ "المنار"، الذي بين فيه صاحبه الحقيقي شكوى من حال البلاد: إن لنا (علماء) لكنهم

---

[15] ابن عاشور، محمد الفاضل. **الحركة الأدبية والفكرية في تونس**، مصدر سابق، ص74.

[16] كريم، عبدالمجيد. "محاكمة عبدالعزيز الثعالبي في جويلية 1904"، **المجلة التاريخية المغاربية**، ع41-42 (حزيران 1986).

جاهلون متكبرون متغابنون وهم آلهتنا، حديثهم بطونهم، وتدقيقاتهم ومباحثهم خاصة بعجائب التكايا وكرامات القبور، وعلمهم كعلم آلهة الآشوريين لا يزيد ولا ينقص ولا يتجدد ولا ينعدم، وهو محصور في تصريف أكل يأكل أكلا[17]...!

عندما دخل هذا العدد من "المنار" إلى تونس، راج المقال بين الناس ورأوا فيه صورة لحالهم وواقعهم. يقول الثعالبي: إن الناس أيقنوا أني أنا الكاتب رغما عن تبرئتي منه وتكذيب الصديق.[18] فقامت حفيظة "المحافظين" ورأوا في هذا الكلام إهانة للعلماء، فطالبوا بمحاسبة صاحبه بل محاكمته، وانضم إلى المحرضين قاضيا المالكية والحنفية كلاهما، إضافة إلى تحريض السلطات الفرنسية التي كانت تدبر المكائد خفية وعلنا، إذ كانت ترى في الشيخ الثعالبي خصما شرسا عنيدا يجب معاقبته في الوقت المناسب. وبالرغم من أن القاضيين المالكي والحنفي اللذين طالبا بمحاكمته أمام المحكمة الابتدائية، إلا أنه "خاب فألهما بامتناع رئيسهما من تعضيدهما خوف الوقوع في ورطة...". لكن لم يتراجع رئيس القضاة عن إحالة الشيخ الثعالبي تحت ضغط وتحذير الكاتب العام "روا". وكان الثعالبي قد "حاصره" أعداؤه حتى خارج تونس وعمدوا إلى التشهير به. وكما يقول هو عن نفسه: حتى "إذا ذهبت إلى المغرب لا يقبلون على ما أنشره بينهم...". وكانت الجماعتان اللتان تقفان أمام مشروعه الإصلاحي هما: المشايخ والمحافظون، وبعض جماعة "الحاضرة" الذين سبق وأن تعاون وعمل معهم، لكن حصل خلاف فكري بينهم وبينه، فكان منه الفراق وكان منهم العداء، وكان يساند هاتين الجماعتين الكاتب العام للحكومة.[19]

قبل شهر رمضان من سنة 1904 بأيام عاد الشيخ الثعالبي إلى تونس قادما من المغرب لقضاء الشهر المبارك في البلاد التونسية، وفي نيته الرجوع بعد ذلك. وعند انقضاء الشهر استعد الثعالبي للسفر، لكن الكاتب العام "روا" –داهية الاحتلال كما ينعته الثعالبي نفسه– أراد أن يثنيه عن سفره، وبالمقبل وعده بمساعدة حكومة الاحتلال له في أي مشروع يريد

---

[17] رضا، محمد رشيد. **مجلة المنار**، مصدر سابق، ع2، مج6 (نيسان 1903)، ص74.

[18] رسالة من الشيخ الثعالبي إلى الشيخ رشيد رضا (غير مؤرخة)، بعد خروج الأول من السجن (بعد 1904/8/30).

[19] ابن ميلاد، أحمد. وإدريس، محمد مسعود. **الشيخ عبد العزيز الثعالبي والحركة الوطنية (1892– 1940)**، تونس: المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات، 1991، ج1، ص61.

القيام به في تونس، فقبل الثعالبي مناورا بذكاء، حيث كان الاحتلال يتوقع منه الرفض لما يعرفه عنه من جرأة وشجاعة، ولكن الثعالبي كان يهدف من قبوله هذا العرض أن يحقق أحد هدفين: فإن صدق المحتل في عرضه قصد حصار الثعالبي ومنعه من التعريف بالقضية التونسية خارج البلاد، يكون الثعالبي بهذا قد حقق فرصة للنشاط داخل البلاد، وإن كذب المحتل فإن الثعالبي يكون بذلك أحرجه وعرف جوانب أخرى من مكره وخداعه. فظل الثعالبي ينتظر "الكاتب العام" حوالي ستة أشهر ولم يأته الرد.

هكذا تواصلت معركة الثعالبي ضد الاحتلال الفرنسي وضد المحافظين "أعداء العقل" كما ينعتهم. فحيكت مؤامرة ضده في الخفاء وحبكت ضده محاكمة. وفي اليوم نفسه الذي قرر فيه القاضي الحنفي استدعاء الشيخ الثعالبي كان سفر الكاتب العام "روا " إلى فرنسا، فعلم الثعالبي بمغادرة "روا" تونس قبل ساعتين فقط فكتب إليه رسالة شديدة اللهجة "لم يكتبها أحد من قبلي" كما يقول هو نفسه. وفي عشية ذلك اليوم منع الثعالبي من السفر إلى المغرب. فلم تكن مغادرة الكاتب العام الفرنسي ومذكرة منع الثعالبي من السفر والأمر بمحاكمته من قبيل الصدفة، إنما كانت تلك إشارة واضحة من "روا " للفئة المحافظة كي تدبر أمرها ضد الثعالبي الذي لم يجد "روا" طريقة مناسبة للتخلص منه –وهو الزعيم الشعبي– دون أن يتورط هو شخصيا وينقلب عليه سحره.

وفعلا بدأت الخطة تنفذ كما حيكت خيوطها في الخفاء، وأول خطوة كانت استدعاء المتهم (الشيخ الثعالبي) إلى المحكمة الابتدائية، لكن الثعالبي رفض القضية من حيث المبدأ، لكنه آثر المناورة دون الصدام المباشر، فتوجه إلى رئيس المحكمة الذي أعلمه بأنه يمكنه الاختيار بين رفض الدعوة أو قبولها، إذ إن المحكمة لا يمكنها إلزام أحد بالذهاب إلى ديوان الشرع، ومع هذا اختار الشيخ الثعالبي التوجه إلى الديوان حيث تمت المواجهة بينه وبين القاضي الحنفي وثلاثة مفتين أحناف. وبعد المداولات اعتبر الثعالبي أن هذه المحاكمة هي أصلا مخالفة للأصول القانونية؛ إذ إن مثل هذه القضايا هي من اختصاص المحاكم العدلية وليس الديوان الشرعي. وقد صرح الثعالبي للمحامين المتعاطفين معه بالقول: "إني مسرور بهذا الحكم وأتمنى أن يؤدي إلى تجنب أمثاله في المستقبل.. وإني لا أطلب العفو في حكم يشرفني

إلى الأبد في عالم الأحرار ومحبي التقدم والحضارة."![20]

الغريب في هذه المحاكمة أنها لم تكن موثقة بحجج الدعوى، مما دفع بالحكومة أن تقرر عدم تسليم الثعالبي قبل الإدلاء بالحجج واستيفاء أركان الدعوى، فرفض الشيوخ المدعون هذا القرار الحكومي وحاولوا إقناع نائب الكاتب بعدالة القضية ضد الثعالبي، لكن النائب رفض دعاواهم وادعاءاتهم معتبرا أن القضية هي سياسية أكثر منها حقوقية، فما كان من المشايخ إلا أن هددوا بالاستقالة إن لم تبادر الحكومة بتسليم الثعالبي، فردت عليهم بأنها مستعدة لقبول الاستقالة وأنها قادرة على إيجاد من يقوم مقامهم في ظرف أربع وعشرين ساعة!. لا شك أن موقف الحكومة في هذه القضية هو موقف سياسي أيضا، إذ إنها كانت تخشى افتضاح أمرها أمام المحامين والموظفين الذين حضروا ليشهدوا سير المحاكمة. وخلال هذه الأحداث تجمهر أنصار الثعالبي بين الديوان وبين دار الحكومة للتظاهر، مما اضطر الشيخ للنزول إليهم في "ساحة القصبة" أمام دار الحكومة لتهدئة الأجواء وطمأنة أصدقائه وأنصاره بأن الحكومة لم تتعرض له بأذى. لكن بالرغم من كل شيء انتهت هذه القضية بسجن الشيخ الثعالبي!.

لم يبق الإصلاحيون خارج هذه الأحداث، بل حاولوا تحريك الصحافة للانتصار لقضية الثعالبي، وربما كانت بعض الصحف قد كتبت عن القضية بسبب نشاط الإصلاحيين الذين يسميهم الشيخ الثعالبي "إخوان العقل"، لأن الصحافة الفرنسية – منها (الرسالة التونسية) Le dépêche Tunisienne و(تونس الفرنسية) La Tunnisie Française– بادرت بالكتابة قبل مثول الشيخ الثعالبي أمام القضاء منذ 1904/7/2 وناشدت الرأي العام في تونس وفي فرنسا إنقاذ الشيخ من براثن التعصب والحقد، فكادت تلك الحملة الصحفية تهز أركان الحكومة، خاصة بعد مساندة الجمعيات الأوروبية لها. وخلال سجنه، كان الشيخ الثعالبي يراسل العديد من المؤسسات مثل: "جمعية الأفكار الحرة" التي كان ينتمي إليها، و"جمعية الذب عن حقوق الإنسان"، وكذلك بعض الصحف عن طريق أصدقائه.

أرسل رئيس منظمة حقوق الإنسان بفرنسا آنذاك "فرانسيس دي براسونساي"

---

[20] Le dépêche Tunisienne 24/ 7/1904.

النائب البرلماني الفرنسي إلى وزير خارجية فرنسا رسالة يلوم فيها ممثلي فرنسا في تونس على انتهاكهم للحريات العامة، "في الوقت الذي تستقبل فيه جمهورية فرنسا باي تونس، وكيف أن الثعالبي عومل كسجين وبإهانة..."! كما استغرب سلوكهم ضد السجين. أما صحيفة (الجمهوري) Le Republicain فقد اعتبرت أن محاكمة الشيخ الثعالبي هي في الأصل انتقام من الحزب الذي ينتمي إليه، وأن ظروف المحاكمة غير قانونية؛ إذ إن المحاكمة لم تستوف شروطها من شهود ووثائق إدانة ونحو ذلك.

ونددت صحيفة (الاستقلال) L'independent بالمحاكمة وبينت أن السلطات الفرنسية أظهرت عجزا تجاه أمن الأهالي، كما نددت جريدة (تونس الصغيرة) La petite Tunisie بسوء المعاملات التي تعرض لها الشيخ الثعالبي. وتحت وقع أقلام الصحف الفرنسية اضطرت الحكومة إلى "إحالة القضية من جناية سياسية إلى مسألة بسيطة لتعرض على المحكمة التأديبية. وقد أدى نائب الكاتب العام دورا مهما في هذه الإحالة من وزارة مستبدة إلى محكمة لها شبه نظام." وقد ألح الكاتب العام "روا" على الاطلاع بنفسه على ملف القضية بالرغم من إقامته في فرنسا، وبالرغم من أنه كان طرفا في المؤامرة كما سبقت الإشارة، وكذلك كان سفر الباي إلى فرنسا يوم 1904/7/2 بهذا الخصوص.

لما علم المحافظون بأهمية القضية وخطورة دور الإعلام، انقلبوا إلى الصحافة ليشنوا من خلالها هجوما ضد الثعالبي، فاستخدموا المال لمغالطة الصحافة المنتصرة للثعالبي، لكنهم لم يتمكنوا من كسب ودها ولم تسمع كلامهم إلا جريدة واحدة مشهورة بمعاداتها للمسلمين ومضادة للتونسيين كما يذكر الثعالبي نفسه: هي "جريدة ملوكية تؤيد بقاء سلطة الملوك وأنا أخالف مبدأها لأني جمهوري، شغوف بالشورى، بغيض الاستبداد". وأما جريدة (تونس الفرنسية) La Tunisie Française ذات الاتجاه التغريبي كما هو واضح من اسمها إلى جانب محتواها، فقد وجدت هي الأخرى في قضية الثعالبي فرصة لتقوم بهجوم ضد الإصلاحيين التحرريين وعلى التراث الحضاري للأمة من خلال الهجوم على الشيخ الثعالبي، فوصفته بأنه قليل الثقافة والانفتاح ولا يعرف العديد من اللغات. لكن هذه الجريدة نفسها لم تجد بدا من الاعتراف بفصاحة الثعالبي وبلاغته، وقالت إنه يعرض قضيته برصانة وعمق، حتى إن مترجم المحكمة (الهادي السبعي) عندما كان ينقل المرافعة

إلى اللغة الفرنسية، لم يقدر على ترجمة مرافعة الثعالبي لبلاغة كلماتها.

أما الجرائد العربية، فبعضها شن حملة ضد الشيخ الثعالبي وكانت تهدف إلى تشويه سمعته في تونس وفي المغرب، حتى إذا أراد إصدار صحيفة هناك وجد كل الأبواب مؤصدة أمامه، ولا يجد جمهورا من القراء فينهار مشروعة الإعلامي. وقد قامت بهذه الدعاية المناهضة للثعالبي جريدة "الحاضرة"، وحتى جريدة "الصواب" المحسوبة على تيار الإصلاحيين فقد أثرت فيها ضغوط المحافظين فانتقدت الشيخ الثعالبي، وكذلك جريدة "إظهار الحق" (1904/7/17) عيرت الشيخ بكل النعوت المشينة، لكنها لم تجرؤ على انتقاد أفكاره الإصلاحية. أما جريدة "الرشدية" (1904/7/2) فقد نعتت الشيخ الثعالبي بأنه "زعيم الجهلة وأكثرهم طعنا لعظماء الأمة" كما أيدت الجريدة نفسها (1904/7/24) الحكم الصادر ضد الشيخ الثعالبي. وكذلك جريدة "القلم" (1904/7/18) سارت على هذا الخط وقالت في مقال بعنوان (الانتصار للدين) إن الثعالبي هو "زعيم الشرذمة الجهلة المارقين عن الدين الذي دعته الفاقة والبطالة إلى الطعن في الكتب المنزلة ومس شرف النبوءة..."! ووافقت هي الأخرى على الحكم الصادر ضده (1904/7/28).

وقد ساهمت "جماعة الحاضرة" في هذه الحملة الشرسة ضد الثعالبي وحاولت محاصرته. وقد أكدت جريدة (Tene) حكم الإعدام على الثعالبي، والظاهر أنها تأثرت بجريدة "الحاضرة". كما نشرت جريدة "اللواء" مقالة نعتت فيها الثعالبي بـ "الجهل والكذب"! وأنه لم يجتمع إلى العلماء المصريين. وأكثر من ذلك أن جريدة "الحاضرة" (1904/8/13) قالت إنه "كان يتطفل على موائد الأغنياء ملتمسا قوتا. وأنه كان شحاذا ثقيلا"!!. وطبعا كان هذا من كلام المغرضين الذين يشعرون بنقص أمام عظمة هذا الرجل –الثعالبي– وفصاحته وأفكاره، وحب الناس له أينما حل أو ارتحل، فلم يبغضه إلا منافق عميل أو جبان متزلف، حتى أن أعوان القاضي الحنفي الذين وصل بهم الأمر إلى العمل على عزل الثعالبي حتى عن أصدقائه المقربين، مثل: محمد الرياحي، والشيخ محمد مناشو، والشيخ محمد شعبان، وهددوهم بالانتقام على لسان القاضي إن لم يبادروا برفض التحزب للثعالبي ويقفوا إلى جانبهم.

لقد كانت تهمة الثعالبي الرئيسة – حسب زعم خصومه وأعدائه– هي القول بخلو بعض آيات القرآن الكريم من الفصاحة وعدم ملاءمته للزمن الحاضر (!!!)، وعدم وجود

فرق بين حكم الحلية بين الموقوذة وما قتلته الجوارح – وهي الفتوى "الترنسفالية" للشيخ محمد عبده– ونعت الخليفة أمير المؤمنين عثمان بن عفان بالاستبداد، وأطنب في مدح قاتليه!!. كما اتهم الثعالبي أيضا بتفضيل مجالس السكر (المقاهي الإفرنجية) على مجالس الذكر (تكايا الطرق الصوفية)، وبادعاء سعة فهم القرآن الكريم أكثر من النبي الأمي!!!، والقول بأن العلوم التي تدرس بجامع الزيتونة تؤدي بطالبها إلى الضلال، وإنكار ولاية عبدالقادر الجيلاني ونسبته إلى الكهانة ولعن دينه!، والقول عن ابن جابر المجذوب بإنه مشوش ونعته بـ "ابن الكلب" ونفى عنه نسب الشرف، والقول بأن حرف الواو في الآية: ﴿.. والراسخون في ٱلعلم...﴾ هي للاستئناف وليس للعطف!... ورمى التونسيين كافة بالجهل!.

طبعا، ظاهر على هذه التهم لبوس التلفيق، ويستنتج منها عمق الحقد وكره هؤلاء للشيخ الثعالبي وأفكاره، إذ إنهم أرادوا، بكيدهم هذا وإلصاق هذه التهم به، إثارة الرأي العام ضده، وبخاصة أولئك البسطاء الذين كانوا يقدسون هؤلاء الدراويش والدجالين الذين هم ليسوا بأولياء كما يعتقدون، بل منهم الجواسيس ومثيرو الفتن. وظاهر من دقة العبارات أنها موجهة إلى الرأي العام الذي كانت تسيطر عليه مثل هذه الأقاويل. فالبسطاء والعملاء كانوا يرون ويتظاهرون بأن السخرية من أدران الدراويش ودجلهم والتشهير بهم، بمثابة الكفر بالله الواحد الأحد، و إلا ما معنى اتهام الثعالبي بأنه قال إن ابن جابر المجذوب "رث الثياب، قذر، وسخ، يتنقل تارة في حي الحلفاوين وطورا في باب بنات[21]..." ؟! أليس هو مجرد تحريض واضح ضد الثعالبي؟!

فعلا، لقد أثمرت هذه الاتهامات ثمارها المرة بالنسبة للثعالبي، إذ خرج العوام من الناس في مظاهرة ضمت ألفي (2000) شخص ينادون بالانتقام وبإعدام الثعالبي "الكافر عدو الله"!! كما ورد بصحيفة (الرسالة التونسية) La dépêche Tunisienne (1904/7/2). ولولا حراسة الشرطة للرجل لمزقته أيادي الهائجين إربا إربا. بل إن الأمر وصل – بعد محاكمته– إلى حد الاعتداء عليه ضربا، نتيجة تأليب الناس عليه من قبل أعدائه، في ليلة الجمعة الواقع في 28 ذي القعدة 1322هـ/ 3 شباط 1905م. ولا يمكن تبرئة الاحتلال الفرنسي–ومنهم الكاتب العام "روا"

[21] "الحلفاوين" و"باب بنات" هما محلتان من محلات العاصمة تونس .

عدو الثعالبي اللدود- من الوقوف خلف هذه الحملة المغرضة الحاقدة التي شنها المشايخ والقضاة المتعصبون على الرجل.

إن القارئ لآثار الثعالبي مثل: كتاب (معجز محمد ﷺ) و(دار الأرقم) و(ورح التحرر في القرآن الكريم) وكتبه الأخرى،[22] يتبين له بوضوح بطلان الاتهامات وزيفها، وبالمقابل يتبين له مدى اعتزاز الثعالبي بالإسلام ورسوله ﷺ وكل مصادر الحضارة الإسلامية ودفاعه عن قضايا الأمة، بل إن الأمر لو كان صحيحا لما استقبل في المغرب أو الجزائر أو مصر، ولما راسله الشيخ رشيد رضا والأمير شكيب أرسلان، وعبدالرحمن الكواكبي، وعبدالحميد الزهراوي، ومحمد كرد علي، وعبدالقادر المغربي، وسليمان الباروني، ومحمد علي طاهر، والزعيم الهندي محمد علي جناح مؤسس باكستان، ومعروف الرصافي، وغيرهم ممن لاقاهم في حله وترحاله ممن يشهد لهم بحبهم للإسلام وغيرتهم عليه، فلو رأوا منه زيغا أو سمعوا عنه ضلالا -فعلا- وما نسب إليه، لشنوا عليه حملة شعواء وشنعوا عليه، لقوله ما ادعاه خصومه من أنه قاله.

أما بالنسبة لموقف الثعالبي نفسه، فإنه تبرأ -طبعا- من هذه التهم المنسوبة إليه واعتبرها ملفقة وباطلة، وهي كذلك حسب الشهود الأساسيين، لأن هذه الشهادات المعتمدة في المحاكمة كان قد سمعها أصحابها من الشيخ الثعالبي في منطقة "الكرم" (بضاحية تونس) في منزل المفتي المالكي الشيخ النجار، وكان ذلك خلال اليوم الثالث من رجوعه إلى تونس قادما من المشرق، قبل سنتين من هذه المحاكمة، مما يعني أن أعداءه كانوا يكيدون له كيدا عظيما كي يحاسبوه على جرأته وتحرره، إذ لم يكن تبعا لأحد سوى الفكر المستنير والحرية، ويقول الثعالبي في هذا السياق: "فأي عذر قام لهم جميعا فأقعدهم عن القيام بالدعوى العمومية في ذلك الحين، ثم ارتفع بعد عامين عن أربعة من العامة فقاموا بها. وهل في استطاعة العامي أن يفرق بين صحيح الأقوال وزائفها حتى ينكر على القول ثم يشهر به. وعلى فرض التسليم بذلك جدلا، فإن الحديث دار بيني وبين المفتي عند زوال ذلك اليوم الذي كنت مدعوا فيه إلى محل آخر. فلم كلف الحاضرون في ذلك المجلس أنفسهم، ومنهم الشهود، مؤونة مرافقتي مسافة الطريق، وقد كنت راكبا وكانوا راجلين للاسترخاص من صاحب الدعوة لكي يسمح بتأجيلها إلى يوم آخر، رجاء قبولي البقاء في ضيافة المفتي بقية ذلك اليوم (؟!). ولما سمع

---

[22] يعَد كتاب "روح التحرر في القرآن" و"تونس الشهيدة" من أبرز كتبه.

الداعي بذلك رجعت ورجعوا وبقينا معا [أي بمنزل المفتي المالكي محمد النجار] إلى صباح اليوم الثاني، ثم افترقنا وهم أشوق ما يكون إلى لقائي...". وهذا يعني أن الثعالبي يعلم علما قاطعا أن الشهود مغرر بهم بطريقة، وهذا صحيح، لأن التهم لو كانت صحيحة، لأنكرها المفتي المالكي محمد النجار والمثقفون الحاضرون، لكنه المكر والعداوة !!

رافع عن عبدالعزيز الثعالبي في هذه القضية محاميان هما سيزار بن عطار وهو إنكليزي الجنسية، و"كولون" Coulon وهو فرنسي، وحاولا تبيان الدوافع الحقيقية وراء هذه التهم المغرضة التي سبقت الإشارة إليها، إذ كانا يريان أن الأمر لا يعدو أن يكون محاسبة للثعالبي على مقاله الذي نشره بالمنار، ومحاسبة من قبل الشيوخ والمحافظين الذين فضح مخططاتهم وجمود فكرهم وتجميد دور جامع الزيتونة وقصره على التعليم التقليدي ذي المستوى المتدني، إذ كان الشيخ الثعالبي يرى أن دور هؤلاء مقصور على ترسيخ الجهل. وقد جرح المحاميان في شهادة الشهود على المستوى الأخلاقي. ولا شك أن هؤلاء يذكرونه ببعض المتفقهين في شبه الجزيرة العربية الذين يمثلون في الحقيقة "الطبقة الجاهلة المتفقهة الذين يسمونهم "المتطوعة" فهم عنصر رجعي في البلاد، ينفر مرآهم ومسلكهم الناس من الإقبال على العلم."[23]

إن أفكار عبدالعزيز الثعالبي تهدد أولئك المشايخ، مشايخ البلاط والولائم، الذين لا يوجد في قاموسهم الحياتي سوى فعل أكل ونام و...، بل تهدد الاحتلال ومقام الباي حاكم تونس الشكلي، بل إن الثعالبي لم يفصل القضية الدينية عن السياسية، وهو أمر يرعب المحتل وكل سلطان جائر في كل عصر، إذ كان يقول بالفكرة الاستقلالية في إطار الخلافة الإسلامية. وقد كان الثعالبي يملك من الذكاء والجرأة ما يخيف أقوى الحكام، حتى إن الشيخ محمد رشيد رضا رأى أن القضية – قضية الثعالبي– أصلها وسببها "ذراية لسانه وجرأة جنانه ومبالغته في حرية القول. وإنني أعرف منه [أي من الشيخ الثعالبي] أنه لا يراعي استعداد المخاطبين في حرية القول. ولعل أهل تونس أشد محافظة على القديم من أهل مصر، كما أن أهل مصر آنس بالحرية والتساهل من أهل تونس، لذلك وجد له خصم هنالك ولم يوجد له مثل ذلك هنا، على أنه كان يقول في المحافل ويخطب ما ينكره

---

[23] جريدة الشورى 1926/5/28.

السامعون. وقليلا ما كانوا ليتكلموا، وهم عندكم يكيدون ويمكرون...".

ثالثا: من السجن إلى "روح التحرر في القرآن":

لم يثبط السجن عزيمة محمد عبدالعزيز الثعالبي على السير في النهج الإصلاحي، بالرغم من قطيعة بعضهم والحصار المطبق عليه، حيث لم يجالسه من رفاقه باستمرار- بعد محنة السجن- سوى الشيخ مناشو. وشكلت النازلة القضائية بالنسبة إليه حافزا لمواصلة مسيرته وعمليات فتح العقول المغلقة، وخاصة أن القضية " أشهرته رجل سياسة ودين معا، خاصة بعد أن تجاوز صداها القضاء التونسي... بتبني مجلة المنار [مج4/ج2/ص74- 78] موقفه ودفاعها عنه، مما وضعه وجها لوجه أمام مشايخ الطرق الذين كانت تغذيهم السلطات الفرنسية [كما يذكر البنبلي]، فضلا عن أنها أظهرته خصما عنيدا لنظام الحماية، وهذا ما جعله ينظم خطواته المقبلة بعد خروجه من السجن، بما يساعده على الاستمرار في السبيل التي ارتضاها..."[24] ومما حز في نفس الثعالبي أن الإسلام ابتلي بعدوين: الأول "أعداء العقل" كما يسميهم، الذين "يتهمون بالكفر والإلحاد...كل من يكتب شيئا عن التحرر"[25]، أولئك الذين لا يعلمون أن الإسلام هو " رسالة عامة إلى جميع العصور، يجب أن تفهم [كمسلم] في كل عصر بما يناسب ويلائم طريقة التفكير فيه"[26]، والعدو الثاني هم المستعمرون الدخلاء.[27]

فألف كتابه "روح التحرر في القرآن"[28] سنة 1905 وهو يعد ردا على خصومه من "رجال الدين" "الناقمين على التطور" حسب تعبير الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور. وقد كان نشره باللغة الفرنسية (L' Esprit Libéral du couran) في باريس، بالرغم من أنه لم يكن يتقن هذه اللغة الأجنبية، وربما كان ذلك نكاية في أولئك المشايخ الذين يجهلون اللغة

---

[24] نشابة, هشام، بوخضرة, مسعودة. **عبدالعزيز الثعالبي ودوره في الإصلاح الإسلامي**، بيروت: المكتبة العصرية، 1995، ص39-40.

[25] الثعالبي، عبدالعزيز. **روح التحرر في القرآن**، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1985، ص118.

[26] الثعالبي، عبدالعزيز. **معجز محمد: رسول الله ﷺ**، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1986، ص13.

[27] ابن عاشور، محمد الفاضل. **الحركة الأدبية والفكرية في تونس**، مصدر سابق.

[28] نفضل ترجمته كالتالي : " الذهنية التحررية في القرآن" .

الفرنسية، حتى يتركهم يبحثون عن شوارد كتابه ويختصمون في معانيه. ويستخلص أيضا من تأليف الكتاب بالفرنسية على أنه رسالة موجهة إلى المحتل ليفهم الصورة الصحيحة للإسلام "وإظهار الدين الإسلامي الحنيف في مظهر الدين المقام على أسس الحرية والعدالة والتسامح" كما يقول حمادي الساحلي مترجم الكتاب المذكور.

لكن كيف تمت العملية وهو لا يعرف اللغة الفرنسية؟ لقد عهد إلى صديقيه المحامي سيزار بن عطار والهادي السبعي المترجم السابق بالمحكمة الابتدائية في تونس بترجمته. كما أنه "لم يكن من الممكن آنذاك نشر ذلك الكتاب باللغة العربية بتونس، خاصة وأن خصوم المؤلف ما زالوا يتربصون به الدوائر، فقد أصدره باللغة الفرنسية اتقاء لشرهم..." وهذه وجهة نظر أخرى. وبالرغم من أن كتاب "روح التحرر في القرآن" قد صدر في سنة 1905 في باريس يحمل آسم ثلاثة مؤلفين، هم على التوالي: سيزار بن عطار والهادي السبعي ومحمد عبدالعزيز الثعالبي. لكن الصحيح[29] هو أن الثعالبي هو الذي حرر النص العربي للكتاب، أما الذي نقله إلى اللغة الفرنسية فهو المترجم الهادي السبعي، وأعاد صياغة النص الفرنسي المحامي سيزار ابن عطار الذي كان يجهل اللغة العربية. والجدير بالملاحظة أن الثعالبي اتبع الطريقة نفسها في نشر كتاب " تونس الشهيدة" سنة 1920 وهو كتاب قيم عرض فيه الأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تعيشها تونس تحت نير الاستخراب الفرنسي، كما عرض فيه مطالب الشعب التونسي. وقد أثار هذا الكتاب سخط الاحتلال وأعداء الثعالبي من التونسيين أنفسهم، وهوجم بسببه في الصحافة. وقد امتدحه الأمير شكيب أرسلان طيب الله ثراه[30]. و"تونس الشهيدة" ألفه صاحبه في الأصل باللغة العربية، وتولى نقله إلى الفرنسية المحامي أحمد السقا (نشر باللغة العربية لأول مرة سنة 1975، ترجمه وقدم له: سامي الجندي). وقد كان الشيخ الثعالبي خلال هذه السنة (1920) قد أعلن تأسيس أول حزب وطني في 15 حزيران

---

[29] وهذا حسب شهادة محمد النعمان الذي أكد – في معرض رده على ادعاء سيزار بن عطار في المساهمة في تأليف الكتاب– رؤيته النسخة العربية في حوزة الهادي السبعي .

[30] قال الأمير شكيب – رحمه الله– عن هذا الكتاب: "تتمثل أحسن وسيلة للاطلاع على الوضع الحقيقي بالقطر التونسي في قراءة "**تونس الشهيدة**" الذي يعطينا– رغم اختصاره– وصفا شاملا لهذا القطر الذي يرزح تحت= =نير الاستعمار الفرنسي... ورغم أن مؤلف الكتاب المذكور لم يختلق شيئا ولم ينقل شيئا آخر غير ما نشرته الحكومة الفرنسية قد اعتبرت كل مطالع للكتاب "عدوا لفرنسا" وجعلت من قراءته جُنحة حقيقية..." يراجَع: مجلة "الأمة العربية" سبتمبر– أكتوبر 1934 (عن اللغة الفرنسية).

تحت اسم "الحزب الحر الدستوري".

الغريب أن "روح التحرر في القرآن" لم يترجم إلا بعد مرور ثمانين سنة من صدوره بالأصل الفرنسي، أي سنة 1985م. ولكن للأسف حذف منه إهداء كان موجها إلى أحد أعضاء مجلس الشيوخ الفرنسي آسمه "فالي" Vallé وزير العدل الفرنسي السابق الذي كان ينتمي إلى كتلة اليسار المعروفة بتأييدها لسياسة التقارب بين المسلمين والفرنسيين، كما تم حذف جواب المهدى إليه. وتم تقسيم الكتاب إلى فصول عدة وضعت لها عناوين، وكل هذه الأشياء لم تكن موجودة بالأصل الفرنسي، وهذا أمر مناف للأمانة العلمية، إذ إن الأولى تركها كما هي لقيمتها التاريخية، والتعليق عليها في الهامش، بأن هذه الوثائق كانت سنة كذا وأن الأحداث المذكورة في هذا النص أو ذاك هي أحداث تجاوزت ما ورد فيه من أحكام.

عالج الثعالبي العديد من القضايا في كتابه "روح التحرير في القرآن"، حيث وضع في بدايته مقارنة بين مصر وبقية الأقطار الإسلامية، والمرأة في الإسلام، والعلاقات بين المسلمين والنصارى، والمذاهب الإسلامية، وعلوم الأصول، والطرق الصوفية والزوايا، والتسامح في الإسلام، والجهاد في الإسلام، والتأويل الصحيح للقرآن الكريم. وقد دعا المؤلف إلى تحرير المرأة من القيود الاجتماعية، والوصاية التي يفرضها المشايخ، لـ" أن القرآن لا يقر بوجود كهنة ولا أحبار، إذ لا وجود لواسطة بين الله وعباده". ويستغرب الثعالبي من "هذا العدد المهول الذي نشاهده اليوم في بلاد الإسلام من رجال الدين المكلفين بالإشراف على المواكب الدينية التي لم ينص عليها القرآن قط، مثل الجنائز وغيرها من الطقوس المرتبطة بمختلف مظاهر الحياة العامة كالولادة والزواج وتنصيب الملوك إلخ... وكيف تشاهد اليوم عند المسلمين– وهو أمر يكاد يكون مرتبطا بالوثنية– هذا العدد المهول من الأولياء والصالحين والمشايخ الذين أسسوا طرقا صوفية وزايا نجدها منتشرة في جميع أنحاء العالم الإسلامي؟

وكيف يمكن أن يبتهل المؤمنون إلى أولئك الأولياء والصالحين والمشايخ أكثر دون

شك مما يبتهلون إلى الله عز وجل."![31] ويتأسف الشيخ الثعالبي لحال أولئك " البسطاء والسذج " الذين راحوا ضحية الأوهام والاستغلال الفاحش من قبل أتباع تلك الطرق كما يقول: "وإننا لنستنكر تلك الخلافات لأن تأثيرها السيئ لا يحتاج إلى دليل فالخرافات والأوهام تفسد الأرواح وتغالط الأفكار وتشوه الطبائع وتوجه الإرادة البشرية في طريق الضلال، وتحدث في العقول عالما من الأوهام لا يشبه العالم الحقيقي في شيء، وتحمل الإنسان على الاعتقاد في الأمور العجيبة التي يظن أنها تستطيع نفعه أكثر بكثير من جهوده وأعماله ومثابرته. كما أن الأوهام تمثل عائقا في وجه العلم. فهي التي تثير الشك في العقول، وهي عدوة الحقيقة وسبب من أسباب الاختبال..."[32] كما يرى أن الأوهام يتعدى مفعولها المستوى الفردي إلى الحكومات والشعوب والجيوش وإلى القوة والعزة فتفسد كل شيء وتضعفه.[33]

ويستغرب كيف يعتقد المسلمون في حماية رؤساء الطرق الصوفية لهم من النار، وأنه "سيدخلهم مباشرة إلى الجنة" لأنه "حبيب الله"![34] ويحس الثعالبي بمرارة لا يعلم طعمها إلا من كابدها: " الأدهى من ذلك أن النساء يعتقدن أن صاحب الزاوية أو الطريقة يعلم الغيب – حسب زعمه– وأن له نفوذا عنه [عن وليه] ما يمكنه من التوسط لديه لتغيير مصير فرد من الأفراد. وبطبيعة الحال فإن تغيير مصير البشر لا يتحقق دون مقابل، أي مقابل هبة عينية أو نقدية... تعطى في كل آن وحين لالتماس عطف "الولي"، فكم مرة رأينا رؤساء الطريقة القادرية (طريقة سيدي عبدالقادر الجيلاني) يعودون من جولاتهم القصيرة في الآفاق مزودين بمئات الآلاف من الفرنكات!.. وكم مرة لاحظنا بعض الفقراء والمساكين يعمدون إلى بيع ملابسهم وأغطيتهم وأغذيتهم ليعطوا ثمنها إلى ممثلي الطرق!. وكم مرة تلقت الحكومة التونسية رسالة من العمال (الولاة) المكلفين بجمع الضرائب يقولون فيها ما يلي: "إنا لم نستطع استخلاص الضرائب لأن ممثل الطريقة الفلانية قد مر

---

31 الثعالبي، عبدالعزيز. **روح التحرر في القرآن**، مصدر سابق، ص57–58.

32 المصدر السابق، ص58 .

33 المصدر السابق، ص59 .

34 المصدر السابق، ص59.

قبلنا بقليل فاستحوذ على كل شيء!... فكيف يرضى المسلمون بهذا النفوذ المطلق الذي يتمتع به رؤساء الطرق والأولياء وغيرهم ممثلي من السلطات الخفية..."[35] ويرى الثعالبي أننا لسنا في حاجة إلى إقامة الدليل على هذه الأمور المخالفة تماما للدين الإسلامي، ويعتبر هذا الأمر أقبح بدعة وأفظع انتهاك لحرمة الإسلام![36]

ويربط الثعالبي بين التسامح في الإسلام ونبذ التعصب من جهة، وبين شمولية الدين الإسلامي من جهة أخرى " ذلك أن الديانات السماوية –كاليهودية و المسيحية– لم تنشأ إلا لفائدة الأمة الإسرائيلية، لأن المسيح –عليه السلام– لم يبعث إلا لإصلاح الديانة اليهودية. وبالعكس من ذلك فإن الدين الإسلامي قد جاء للبشرية قاطبة. وبناء على ذلك فمن مقتضيات ذلك الدين الموجه إلى عموم البشر أن يسعى إلى تحقيق التقارب بين بني الإنسان وجلب المنفعة إلى الجميع. فينبغي حينئذ أن تتمثل المبادئ العامة للدين الإسلامي في التعاليم المقامة على حب الغير والتسامح، أي باختصار المبادئ الاجتماعية"[(37)]. ويستغرب الشيخ الثعالبي كيف استطاع المفسرون أن يستخرجوا من تعاليم الإسلام السمحة ذلك التعصب المتطرف[(38)].

أما بالنسبة للجهاد فيرى الثعالبي أنه شرع للأمور الدفاعية باعتبار " أن الرسول ﷺ قد حارب دوما وأبدا للدفاع عن نفسه. ولم يكن قط هو المعتدي، ولم يخض غمار جميع الحروب إلا لسبب واحد وهو للدفاع عن النفس".[39] وقد استشهد بآيات من سورة التوبة، ورأى أن الآيات القرآنية المتعلقة بالحرب تنطبق على المعتدين، واستشهد بأشهر كتب "أسباب النزول"، ويرى أن "ذلك من الحقائق التي لا نزاع فيها بالنسبة لكافة المسلمين أن لكل آية من الآيات القرآنية سببا معينا واضحا لا يمكن أن يتطرق إليه أي شك. ونعني بذلك– طبعا– الآيات المتحدثة عن واقعة من الوقائع التي عاشها الرسول ﷺ أو المتعلقة بأحد المبادئ التشريعية،"[40]

---

35 الثعالبي، عبدالعزيز. **روح التحرر في القرآن**، مصدر سابق، ص60 وما بعدها.

36 المصدر السابق، ص81.

37 الثعالبي، عبدالعزيز. **روح التحرر في القرآن**، مصدر سابق، ص87– 88.

38 المصدر السابق، ص102.

39 المصدر السابق، ص108.

40 المصدر السابق، ص109.

وقال مترجم كتاب "روح التحرر في القرآن" في الهامش: "ما يرمي إليه المؤلف من قصر النص القرآني على الحادثة والظرف الزمني والمكاني الذي نزلت فيه الآية مناقض لقاعدة قطعية عموم الشريعة الإسلامية، إذ لو قصرنا كل آية نزلت إثر حادثة معينة على تلك الحادثة لكان من لازم ذلك قطعيا أن يقصر الإسلام على الظروف الخاصة..." وقال المترجم أيضا: إن ابن تيمية قال في الفتاوى (339/13): الذين قالوا الآية نزلت في كذا لم يقصدوا أن حكم الآية مختص بأولئك الأعيان دون غيرهم. فإن هذا لا يقوله مسلم ولا عاقل على الإطلاق.. اهـ. لكن لا نحسب أن الثعالبي يقصد هذا، نظرا لما عرف به من حصافة الرأي وبعد النظر وعمق التحليل المنطقي، ولا نحسب أنه غابت عنه القاعدة التي أجمع عليها الأصوليون من أن: العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

يرى الثعالبي أن التأويل الذي قدمه في كتابه هو التأويل الواجب إعطاؤه للقرآن الكريم، أما تأويل الآخرين الذي يسميه "التأويل المعاكس" "يبدو ملتويا ومشوشا، ويستدعي كل الحالات للتسليم به، افتراض ما يطلب إثباته."[41] ويرى أن هناك سببين للتأويل، (تأويل غيره): السبب الأول توحي به المصلحة الشخصية "لأولئك العلماء المزيفين الذين يرون من مصلحتهم نشر ذلك الجهل المنجر عنه التعصب، وبالتالي الزيادة في نفوذهم. أما السبب الثاني فهو يتمثل–بناء على قدم النصوص– وبالتالي الزيادة في نفوذهم، في إحداث عدد كبير من المذاهب والفرق الإسلامية، يتهم بعضهم بعضا بالكفر والإلحاد ويحتقر بعضها بعضا. فلقد نشبت بين مختلف الفرق الإسلامية حروب عدة، سببها الظاهر والمصرح به هو الدين. كما لو لم يكن الدين واحدا بالنسبة لجميع المسلمين. ألا يقيم ذلك أوضح دليل على ارتكاب المسلمين الخطأ في تأويل القرآن؟"[42]

فالإسلام واحد، جاء للبشرية جمعاء ضمن ديانة واحدة وليس ضمن مذاهب. وانطلاقا من وحدة الكتاب والدين والنبي خاتم الأنبياء ﷺ، يقول الشيخ الثعالبي: "لا بد أن تكون هناك أمة واحدة، فالقرآن واحد والإسلام واحد، ولا ينبغي أن يوجد أي خلاف بين المسلمين في المذاهب والفرق. وكيف الوصول إلى هذه النتيجة إن لم يكن بتأويل القرآن تأويلا

---

[41] المصدر السابق، ص115.

[42] الثعالبي، عبدالعزيز. **روح التحرر في القرآن**، مصدر سابق، ص116.

سليما ومتحررا واجتماعيا؟ وهكذا يمكن أن يحصل ذلك التقارب بين الشعوب الذي كان يرمي إليه الرسول ﷺ."[43] بل إن عبدالعزيز الثعالبي يرى أن التفاسير شكلت حاجزا أمام نظرة الشعوب الأخرى إلى المسلمين، تلك الشعوب التي ترى أن القرآن هو سبب انحطاط المسلمين مدعين أن القرآن هو الذي ضبط للمسلمين حدودا للحضارة والرقي لم يعد بإمكانهم تجاوزها.[44] ولكن الثعالبي يرى أنه "مهما كان الحكم جائرا، فإنه يعتبر مع ذلك صحيحا إذا ما طبق على عقلية المسلمين، تلك العقلية التي أنشأها جميع أولئك العلماء والفقهاء والمفسرين الذين كانوا مصيبة على الإسلام. والحال أن القرآن –كما سبق لنا أن بيناه– هو أداة عجيبة من أدوات الرقي والحضارة، إذ إنه يؤكد ويقر ويفرض جميع مبادئ التحرر الحق."[45] بل إنهم مصيبة على الدعوة الإسلامية التي يرى أنها تتم بهذه الأساليب المشوشة، إذ أن "الجانب المغري في الإسلام، وهو وحده كاف لاجتذاب الأفئدة إليه بلا دعاية ولا تشويق."[46] لذلك –حسب رأيه– لا يحتاج الإسلام إلى أمثال هؤلاء الذين يلحقون الضرر بصورة الإسلام أكثر مما يدعون إليه دعوة حقيقية، فالعبرة بالأخلاق والمعاملات الحسنة التي هي جوهر كل دين.

لم ينس الشيخ عبد العزيز الثعالبي في كتابه (روح التحرر في القرآن الكريم) بأن القرآن يدعو إلى التحرر بل هو روح التحرر، فيقول بمرارة – ولا شك أنه في هذه اللحظة تراءت له أشباح محاكمته (1904) الجائرة–: "وهل يستطيع أي مسلم يتحلى بشيء من التحرر أن يكتب أو يقول أي شيء في سبيل ذلك التحرر دون أن يتهم بالكفر والإلحاد ويحكم عليه بأسم ذلك القرآن الذي ينادي بحرية الرأي؟!"[47]

رابعا: من جديد.. إلى المنفى:

الخطوة الثانية التي خطاها محمد عبدالعزيز الثعالبي بعد تحرير كتابه "روح التحرر في

---

[43] المصدر السابق، ص116–117.

[44] المصدر السابق، ص117.

[45] المصدر السابق، ص116–117.

[46] الثعالبي، محمد عبدالعزيز, **مسألة المنبوذين**، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1984، ص25.

[47] المصدر السابق، ص118.

القرآن" هو التحاقه بـ"حزب تونس الفتاة" الذي كان يرعاه المحامي علي باش حانبة (1879– 1918م) الذي كان متأثرا بحركة الشباب العثماني وحركة الوطنيين في الشام ومصر. وكانت جريدة "التونسي" هي لسان حال الحزب، وأصبح الثعالبي رئيس تحرير نسختها العربية سنة 1909م.

خلال هذه الفترة ظهرت كتلة "مقهى التوتة" في الحلفاوين (وهي منطقة من أرباض تونس العاصمة) و"نادي غرناطة"– وهو بالأصل محل حلاقة لمحمد الدامرجي– في محلة "باب بنات"(وهو مكان من أرباض تونس العاصمة أيضا)، ورواده من خريجي جامع الزيتونة، ويشكلون التيار الإصلاحي الإسلامي الذي ينادي بالوحدة الإسلامية. أما "كتلة التونسي" التي كان مقرها بالحي الفرنسي، وكانت في بداياتها حتى سنة 1908، فقد رفعت المطالب الإصلاحية عينها– تقريبا– التي نادى بها الفريق المعتدل القديم: تعميم التعليم، وإصلاح البرامج، وتحرير العلاقات الاستغلالية التقليدية، وتعليم المرأة وتحريرها.[48] و"شكل الناديان: "مقهى التوتة" بالحلفاوين، و"نادي غرناطة" بباب بنات، الحلقتين في نشر الوعي السياسي في الوسط التقليدي والشعبي. وكان دورهما هاما في تركيز وعي الوحدة الإسلامية والتجديد الفكري. في حين ركنت فئة "النادي التونسي" إلى النخبة المتكونة بفرنسا واستقرت بوسط الحي الفرنسي، ولم تفرد لا للغة العربية ولا لمستوى الثقافة العربية الإسلامية حركية في الأوساط الشعبية، وذلك –على الأقل– حتى 1908–1909، رغم أنها ساهمت في رفع المستوى الثقافي والوعي الاجتماعي."[49] وبالرغم من بعض التباين بين التيارين إلا أنهما عرفا تقاربا حول فكرة الوحدة الإسلامية، لكنه تقارب كان مشحونا ببعض السجالات القديمة بسبب الخلفية السياسية والثقافية لكل منهما. ومن الجدير بالذكر أنه لم تقم حركة احتجاج معتبرة منذ احتلال تونس سنة 1881 إلى سنة 1885، حيث قاد الشيخ السنوسي احتجاجا قويا، وربما كان ذلك بتأثير الزيارة الأولى التي قام بها الشيخ محمد عبده لتونس.

---

[48] ابن ميلاد، أحمد. وإدريس، محمد مسعود. **الشيخ عبد العزيز الثعالبي والحركة الوطنية (1892–1940)**، مصدر سابق، ص102.

[49] المصدر السابق، ص111.

ثم شهدت تونس حركة مماثلة تمثلت في واقعتي الزلاج والترام، حيث تظاهر الناس ضد الحكومة الفرنسية التي حاولت الاستيلاء على مقبرة الزلاج (1911/10) وهي وقف إسلامي وقفها الشيخ الزلاج على موتى المسلمين (لا تزال موجودة حتى يومنا هذا وهي تقع على تلة تقع على يمين زائر مدينة تونس إذا كان قادما من الجهة الجنوبية). ومما يذكر في هذا السياق أن الثعالبي –بالتعاون مع علي باش حانبة– أصدر جريدة "الاتحاد الإسلامي" إثر الاحتلال الإيطالي لطرابلس الغرب سنة 1911م، وقد سخرها للدعوة إلى الجهاد ومساعدة الطرابلسيين ماديا ومعنويا. وقد عبرت هذه الجريدة عن عواطف التونسيين المؤيدة للجيش العثماني المار بتونس، حيث استقبله الشعب التونسي هناك استقبال الفاتحين الأبطال، بل منهم من تطوع معه في سبيل الخلافة الإسلامية. أما في الواقعة الثانية، فقد قاطع التونسيون شركة "التراموای" بسبب التفرقة في الأجور بين السكان الأصليين وبين الأوروبيين الأجانب، حيث كانوا يدفعون للسكان الأصليين أقل، إضافة إلى سرعة قاطراتها عند مرورها بالأحياء العربية، مما تسبب في قتل الكثير من المواطنين.

... تسارعت الأحداث.. وكانت تظاهرات طلاب الزيتونة بسبب تغييب الأساتذة وتأخر المناهج، فما كان من سلطة الاستعباد الفرنسية إلا أن أعلنت الأحكام العرفية وعطلت الصحف ونفت (في 3/13/ 1912م) زعماء الحركة الوطنية، منهم: علي باش حانبة، وأخيه محمد، ومحمد عبدالعزيز الثعالبي – صاحب السيرة هذه–. لكن نشاطهم لم يتوقف في المنفى. كذلك أبعدت بقية منهم إلى الجنوب التونسي، منهم: محمد نعمان، وحسن قلاتي، وعبدالجليل الزواش، والبشير صفر، ودارغوث، ... وقد نال هؤلاء المغضوب عليهم وعدا من ألمانيا والنمسا والدولة العثمانية في أثناء الحرب العالمية الأولى بإنشاء دولة مستقلة يطلق عليها اسم (جمهورية شمال إفريقيا) تضم: ليبيا، وتونس، والجزائر، والمغرب.

وكان الشيخ الثعالبي يتنقل خارج تونس بين العديد من بلدان العالم: مصر، وعدن، وكولومبو، والملايو، وسنغافورة، وجاوة، ومملكة ماترام، مملكة صولو، وبتاوا، ورانكون، وكلكوتا، وكوماي، والهند... وفي هذا البلد الأخير (الهند) رأى أن مسلميها يولون أهمية كبرى لرفع راية الإسلام، ولهم جريدتان، هما: "الهلال" و"الحبل المتين". وأقيمت له فيها حفلة وداع ألقى خلالها خطبة شرح من خلالها أحوال العالم الإسلامي ومستقبل الوحدة

الإسلامية، واتفق مع أغلب الشخصيات هناك على إقامة مؤتمر إسلامي يجمع الدول الإسلامية كافة،[50] لأن الشيخ الثعالبي يرى أن " الأمم لا تسود ولا ترقى، ولا تسعد ولا تشقى، إلا بمقدار بعدها وقربها من دينها، القرب من الدين محك العزائم.. .ولولا الديانات ما تباينت الأفكار، ولا تبارت الشعوب في إنشاء المقذوفات، ولا تمادت الأفهام في اختراع المدمرات، وخصوصا في هذا العصر الذي تقوت فيه أوروبا المسيحية."[51]

خامسا: من الجهاد إلى "تونس الشهيدة":

أفسحت الحرب العالمية الأولى في المجال لفرنسا لتستريح استراحة مقاتل. وكانت الخلافة العثمانية الإسلامية سنة 1914 لا يزال يراودها الأمل في استعادة ما أفتك منها (شمالي إفريقيا)، فوجهت القائد جمال باشا لاسترداد مصر من براثن المحتل الإنكليزي، والقائد أنور باشا للقيام بالمهمة نفسها في ليبيا المحتلة من قبل إيطاليا منذ 1911م، وكان محرك الخطة هو علي باش حانبة الذي أبعدته سلطات الاحتلال من وطنه تونس. أما الثعالبي فلم يكن بعيدا عن هذه الأحداث، بل كان يشكل الخلايا السرية لتمهيد الأرضية لها[52] من أجل مقاومة المحتل. أما قوات الإنكليز والجيوش العربية المخدوعة (في العراق وفلسطين وسورية والأردن) فقد قطعت الشعرة الرابطة بين الباب العالي والإيالات التابعة له، سواء أكانت تلك الرابطة معنوية أم سياسية مباشرة.

خلال هذه الفترة يروي أبو اليقظان –وهو أحد المقربين من الزعيم الدستوري الثعالبي ومستودع سره– قائلا: "في سنة 1917 أنشأ الشيخ محمد عبدالعزيز الثعالبي في تونس جمعية سرية فدائية، غرضها إحداث حركة تحريرية في المغرب العربي كله: ليبيا، وتونس، والجزائر، والمغرب الأقصى. وفي تونس كان رئيسها هو الشيخ الثعالبي ومعه خمسة أعضاء.

---

[50] ابن ميلاد، أحمد. وإدريس، محمد مسعود. **الشيخ عبد العزيز الثعالبي والحركة الوطنية (1940–1892)**، مصدر سابق، ص175.

[51] الموسوعات، ص129.

[52] الثعالبي، عبدالعزيز. **من آثاره وأخباره في المشرق والمغرب**، إعداد صالح الخرفي. بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1995، ص67.

والجمعية تتركب من ستة، ولكل [واحد من] هؤلاء الستة أن يستأذن الجمعية في إنشاء فرع من أناس تثق بهم الجمعية وترضاهم، يكون هو رئيسهم، ولا يعرفون غيره من أعضاء الجمعية. وكان القائد التركي عازما على احتلال مصر [أي تحريرها]، ثم غربها إلى الجزائر والمغرب الأقصى، وكان المغرب الكبير يستعد لقبوله، ويمني نفسه بالتحرير، فأنشأ في أنحائه كلها فروعا لهذه الجمعية السرية، فصارت تستعد لوصوله لتثير المغرب كله على فرنسا، إذا طرقت جيوش الدولة العلية أبوابه. فلما أخفقت خطة جمال لاحتلال مصر ألغيت هذه الجمعيات السرية".[53]

تدهورت الأوضاع بسقوط الخلافة الإسلامية سنة 1924. وكانت تونس من الدول التابعة للخلافة العثمانية منذ الفتح العثماني لها سنة 1571م، كما سبق الذكر، حتى أن مسلمي تونس –كما يذكر ابن عاشور– صعقوا وتمسكوا ببيعة الخليفة العثماني عبدالحميد، واستمر الأئمة في الجوامع يخطبون بٱسمه. لكن سقوط الخلافة رفع الغطاء عن هذه الإيالة (تونس) وغيرها من الإيالات. فبدأت حسابات دولية جديدة، ورأى التونسيون أن هناك هدفا سياسيا لا بد من الالتفاف حوله ألا وهو الدستور الذي جاءت منه تسمية الحزب "الحزب الدستوري" الذي أسسه الشيخ محمد عبدالعزيز الثعالبي بتاريخ 1920/6/15، وقاده حتى سنة 1923،[54] تاريخ محاصرة فرنسا للتحركات السياسية، فتقلصت أنشطة الدستوريين، مما اضطر الثعالبي إلى الهجرة كما سيأتي.

بعد أن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها، تبلورت في ذهن الشيخ الثعالبي رؤية حول وضع تونس السياسي، وفكر في السفر إلى باريس عاصمة المحتل الغاصب، إذ تناهى إليه أن الرئيس الأمريكي "توماس تيودور ويلسون" (1856–1924) سيحضر مؤتمر الصلح هناك (مؤتمر فرساي 1920). وكان الثعالبي يلخص مطالب تونس في: "منح التونسيين حق

---

[53] الثعالبي، عبدالعزيز. **من آثاره وأخباره في المشرق والمغرب**، مصدر سابق، ص67–68. ولا شك أن الثعالبي كان واعٍ بآثار الأحداث العالمية آنذاك وتأثيرها على قضايا التحرر بالعالم، مثل: الحرب العالمية الأولى وعد بلفور وما يسمى بـ"الثورة العربية الكبرى" والثورة البلشفية، وغيرها...لذلك ضرورة استثمار الفرصة.

[54] 14 آذار 1920 هو أول اجتماع تأسيسي "للحزب الحر الدستوري". كان هدف هذا الحزب هو الاستقلال، وبصفة مرحلية، ريثما يتكون رأي عام من التونسيين. لمزيد من الاطلاع عن تأسيس الحزب يراجع مناصرية، يوسف. **الحزب الحر الدستوري التونسي (1919 – 1934)**، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1988.

التصويت، وحق المساهمة في إدارة البلاد، وصون الحريات"[55] كخطوة أولى. ونظرا لوجود "نظام الحصار الساري"،[56] كان لا بد من التنسيق مع أعضاء "الحزب التونسي" فيما يخص الرحلة التي عقد العزم للقيام بها.

في باريس حاول عبدالعزيز الثعالبي "التأليف بين قلوب المسلمين، من مصريين وتونسيين ومراكشيين، وجزائريين، وطرابلسيين، وهنود، وأذربيجانيين، وقوقازيين، وسوريين، وفلسطينيين وغيرهم، لوضع أساس للتعاون بين بلدان الشرق. وإنشاء عصبة الأمم الشرقية"[57] التي لم تظهر إلى النور. وفي باريس أيضا اتصل بزعماء حركات التحرر في العالم الذين تجمعوا بمناسبة مؤتمر الصلح – معرفا بالقضية التونسية وقام "بحملة ضد الحكومة [الفرنسية] وأجهزتها الإدارية، وإعداد مذكرة سلمها إلى المقيم العام [إيتيان فلاندان[58] 1919–1921]، طالبا فيها بإلحاح رفع إجراءات الحجر المفروضة على الصحافة التونسية"... فعلا استجيب لطلبه، حيث "ألغت فرنسا قرار تعطيل الصحف في آذار/ مارس 1920."[59] وكان الثعالبي يعول على الحزب الاشتراكي الفرنسي (تأسس سنة 1905) حيث اتفق مع "رئيس اللجنة الاستعمارية التابعة للحزب على أن يوفد لجنة تحقيق إلى تونس، للاطلاع عن كثب على المطالب التونسية."[60]

لم يقاطع الشيخ الثعالبي سلطات الاحتلال، إذ كان يؤمن بمحاربة العدو من الداخل، ويدخل في هذا السياق معارضته لمسألة حصول تونس على قرض مالي،[61] وهو لا يزال في فرنسا (باريس) حتى لا ترتهن البلاد للاحتلال. ويعلم الثعالبي جيدا أن الاستقلال لا يوهب بل يفتك عن طريق الجهاد، حتى إنه في إحدى المرات في حزيران

---

55 الثعالبي، عبدالعزيز. **تونس الشهيدة**، مصدر سابق، ص340.

56 الثعالبي، عبدالعزيز. **تونس الشهيدة**، مصدر نفسه، ص333.

57 جريدة الشورى 1926/5/21 .

58 في عهد "إيتيان فلاندان " أُحدثت بدعة "الثلث الاستعماري " أي دفع 33 % من الراتب وزيادة للموظفين الفرنسيين على ما يدفع لنظرائهم التونسيين أهل البلاد .

59 ابن عاشور، محمد الفاضل. **الحركة الأدبية والفكرية في تونس**، مصدر سابق، ص135 .

60 الثعالبي، عبدالعزيز. **تونس الشهيدة**، مصدر سابق، ص366.

61 المرزوقي، محمد. يحيى، الجيلاني بن الحاج. **معركة الزلاج**، ط2، تونس: الشركة التونسية للتوزيع، 1974، ص180.

1919 سأله زميله حسن قلاتي –قبل انشقاقه عنه– عن إمكانية تطبيق مبادئ "ولسون" في مستعمرات فرنسا، فرد عليه بأنه ليس طفلا لينخدع لذلك، وإنما سيعتمد عليها لبسط مطالب التونسيين أمام السياسيين الفرنسيين[62]. وفي هذه الفترة أصدر كتابه هناك أيضا: "تونس الشهيدة" دون توقيع، وتمكن من طباعة ألفي (2000) نسخة منه في مطبعة "جوزيف وشركائه"، ولاقى نجاحا واسعا. وقام هو بنفسه بتوزيعه –عن طريق البريد– إلى كل المسؤولين الفرنسيين من وزراء ونواب وموظفين كبار، وإلى المحافظات الفرنسية، وتمكن من إرسال حوالي (474) نسخة إلى داخل تونس، فتناقلته الأيادي سرا، واستلهمه الناس في كتابة العرائض التي حملت آلاف التواقيع للباي (حاكم تونس الشكلي) وللمقيم العام الفرنسي، وعلقت عليه الصحف الفرنسة، ونشرت منه الصحافة الحرة صفحات كثيرة.[63]

وقد اعتمد في عرض إحصاءات الوفيات والبطالة والأمراض على إحصاءات الأوروبيين أنفسهم حتى يقنع الرأي العام الفرنسي بصحة أقواله. كما أرسل منه نسخا إلى إسبانيا وإنكلترا وسويسرا والهند ومصر وطرابلس الغرب وسوريا وتركيا وأمريكا، ولقي رواجا في فرنسا وسويسرا وألمانيا وروسيا وبقية العالم العربي، وترجمت منه فصول في الجرائد الأمريكية. وقد قال عنه أحد أفراد الحزب الدستوري عندما قرأ نسخة منه: "أعز من الحياة وأنه ينتقل من واحد إلى آخر". لقد أثار هذا الكتاب حفيظة الاحتلال الفرنسي "حبيب الظلام عدو الحياة" بتعبير شاعر الحياة الحرة أبي القاسم الشابي. فألقت عليه القبض، فاعترف الثعالبي بما نسب إليه من أول وهلة بأنه هو الذي ألف الكتاب، وقال بأنه موجه إلى الشعب الفرنسي، ولو كان موجها للجمهور التونسي لكتبه باللغة العربية. فأودعته سلطات الاحتلال –بتهمة بالتآمر ضد أمن الدولة– سجون باريس ومرسيليا يوم 7/28/ 1920 أي بعد تأسيس الحزب الحر بأقل من شهر ونصف الشهر، وهناك لقي من العنت والظلم ما لقي، ورحلته –فيما بعد– مغلولا إلى تونس، حيث زج به في

---

[62] الدرعي، أحمد. **دفاعا عن الحداد أو بكت كتب الكبت**، تحقيق وتقديم أنور بوسفينة. تونس: عبدالكريم بن عبدالله، 1976، ص187–188

[63] المصدر السابق، ص17– 18 .

غيابات السجن العسكري في حي القصبة، حيث قضى تسعة أشهر[64]، ثم أطلق سراحه في 1921/5/1 حيث حكمت المحكمة بعدم سماع الدعوى .

بعد الإفراج عنه أصبح الثعالبي مشرفا –عن كثب– على توجيه الحياة السياسية والفكرية حسب المنهج الذي يرغب فيه ويدعو إليه،[65] فأنشأ مجلة "الفجر"[66] (آب/ أغسطس 1921) التي بث فيها آراءه السياسية الواضحة. وليقينه بخطورة الدور الإعلامي سعى إلى "توسيع نطاق الطباعة بالدعوة إلى تأسيس مطبعة كبيرة كون لها شركة مساهمة هي مطبعة النهضة، على نية أن تصدر عنها صحيفة يومية كبرى."[67] ومما يذكر أنه قد حوكم سنة 1929 مرة أخرى وسجن، وبعد خروجه من السجن منع من السفر، لكن ازدادت شعبيته ولقي التأييد، فقهر منافسوه قهرا شديدا وماتوا بغيظهم، حتى إن الناس باتوا يلقبونه بالزعيم و"سعادة الرئيس" وهي سابقة لم تعرف لها تونس مثيلا! إذ لم يسبق أن أطلقت هذا اللقب على أحد من قبله، وهو أمر يغير صدور الحاقدين عليه.

استأنف نشاطه السياسي المتمثل في رئاسة الحزب الدستوري، وغدا –من جديد– "الرأي العام يستجيب لدعوته وأصبح له فروع في المدن والقرى، الأمر الذي دعا السلطات الاستعمارية إلى إلقاء القبض على الثعالبي وبعض أقطاب حزبه"،[68] منهم:

---

64 المرزوقي، محمد. يحيى، الجيلاني بن الحاج. **معركة الزلاج**، مصدر سابق، 1974.

65 ابن عاشور، محمد الفاضل. **الحركة الأدبية والفكرية في تونس**، مصدر سابق، ص137.

66 نحسب أن الحركة الإسلامية في تونس في تسعينات القرن العشرين قد كانت متأثرة بنهج الشيخ عبد العزيز الثعالبي، بل حتى في التسميات. فالجزء المضاف إليه من اسم "حركة النهضة" –بالرغم من شيوعه– أحسب أنه مستوحى من اسم المطبعة التي أنشأها الشيخ الثعالبي"مطبعة النهضة"، وكذلك اسم "جريدة الفجر" التي أنشأتها حركة النهضة والتي صودرت بعد شهور من صدورها، أحسب أنها كانت مسماة على اسم المجلة التي أنشأها الشيخ الثعالبي في آب 1921م "مجلة الفجر". بل إن حركة النهضة في العديد من أفكارها واجتهاداتها هي في= =جوهرها امتداد لأفكار الشيخ الثعالبي الذي كان يدعو إلى رفع الوصاية عن الأمة وتركها تنعم بالحرية. ولا شك أن حركة النهضة كانت تهدف إلى تأصيل جذورها تاريخيا، وهذا ما يتناسب –في أيامنا هذه وقبل ذلك أيضا– مع البعد الحضاري لتونس الشهيدة وطموحات شعبها.

67 ابن عاشور، محمد الفاضل. **الحركة الأدبية والفكرية في تونس**، مصدر سابق، ص139.

68 برج، محمد عبدالرحمن. **من السويس إلى بنزرت**، القاهرة: د. ن، --19، ص80. الطاهر، عبدالله. **الحركة الوطنية التونسية (1830–1956)**، د.م: مكتبة الجماهير، 1976، ص61.

الشيخ محمد رياض، والشيخ صالح بن يحي وغيرهما، وزج بهم في غيابات السجن العسكري في تونس، بتهمة التآمر على أمن الدولة –وهي تهمة مشهورة عند الطغاة– ثم أحالتهم السلطات إلى المحكمة العسكرية الفرنسية في تونس طالبة إصدار حكم الإعدام بحقهم،[69] فسارع أنصار الثعالبي ومن بقوا خارج السجون إلى تشكيل وفد برئاسة الأمين العام للحزب آنذاك أحمد الصفاي، وكلفوه بالسفر إلى باريس ليعرض طلبهم أمام الحكومة الفرنسية المتمثل في السماح بإنشاء مجلس نيابي للبلاد.[70]

خلال هذه الفترة، كان لا بد للاستعمار أن يفعل شيئا من أجل إضعاف حركة الوطنيين، وهو ما تم فعلا، حيث استمالت الباي محمد الحبيب (الباي السادس عشر الذي حكم تونس بين 1922– 1929) والذي عرف قبل اعتلائه عرش تونس في صفوف الوطنيين المطالبين بحقوق تونس، وصديقا مقربا من الشيخ الثعالبي[71] الذي كان مأمونا على شؤونه المالية، لكن بعد أن نصب ملكا قلب ظهر المجن للشيخ الثعالبي، إذ إن للسلطة في النفس البشرية سكرة كسكرة الخمرة أو أشد! فانقلب الباي محمد الحبيب من صف الثعالبي وبقية الأحرار الوطنيين إلى صفوف الفرنسيين المحتلين للبلاد، ووضع يده في يدهم و "لم يدع وسيلة من وسائل القهر إلا أخذ بها"[72] لقهر أبناء بلاده، كما استجاب للمخططات الفرنسية المتمثلة في ما عرف بإصلاحات 13/ 7 /1923، وإقناع حسن قلاتي بتأسيس "الحزب الإصلاحي" الذي سبقت الإشارة إليه، وكان الهدف منه هو إضعاف الحركة الوطنية ومن أبرزها "الحزب الحر الدستوري"، كما أراد الاحتلال أن يصور الأمر كأنه فشل سياسي للثعالبي، بل إن الحكومة الفرنسية لم يهدأ لها بال ما دام عبدالعزيز الثعالبي –الذي أرقها– مقيم في تونس، فكان لا بد لها من ترحليه حتى لا يزعجها ويفشل خططها، وإن كان ترحيله يعد مشكلة بالنسبة لها أيضا، بل الأدهى من ذلك أن فرنسا أرادت أن تصور رحيل الزعيم عن بلاده كأنه بإرادته. وكان الثعالبي قد عاهد نفسه إذا ما واجه فشلا بأن يهيم على وجهه في العالم ويغادر البلاد التي "لم أتمكن من خدمتها كما كنت أود"![73]

---

69 برج، محمد عبدالرحمن. **من السويس إلى بنزرت**، مصدر سابق، ص80.

70 المصدر السابق.

71 جريدة الشورى 1925/5/14.

72 المصدر السابق.

73 الثعالبي، عبدالعزيز. **تونس الشهيدة**، مصدر سابق، ص338.

وكان مما زاد الأمر تشويشا على الثعالبي هو أن "انتشر في البلاد قلق عظيم، فبات الزعيم الثعالبي والباي على عداء مقيم"[74] بعد أن كانا على وفاق كما سبق الذكر. وفعلا لم يجد الشيخ الثعالبي بدا من الرحيل، وبخاصة أن الحزب الدستوري الذي أسسه وقع في بنيانه شرخ كبير، حيث انشق حسن قلاتي مؤسسا "الحزب الإصلاحي" -كما سبق الذكر- وأصدر جريدة "البرهان" ودعا إلى قبول سياسة المراحل التي تنتهي إلى نظام فك الارتباط بين تونس وفرنسا، وظهرت الدعوة الشيوعية، وتتالت الأحداث... فلم يجد الشيخ الثعالبي مكانا لنفسه في خضم المكائد، حتى إنه لم يعد يستشار في العديد من القضايا المصيرية.

سافر الثعالبي، ليس للاستراحة استراحة مقاتل، إنما للبحث عن حل آخر. ففي يوم الأربعاء 7/18 /1923 "ودع (...) تونس وداع المضطر، كسير النفس، مهيض الجناح، قليل النصير، كثير الأعداء. استبد به الأبعدون، وانقلب عليه الأقربون"![75] وأحكم الحصار حوله بدهاء ومكر من المقيم العام (لوسيان سان) حتى لا يبقى له منفذ إلا الخروج من الوطن. حوصر في لقمة عيشه وجرعة مائه، وروقب في متنفسه وهوائه، وسلط عليه أعوان الأمن من بين يديه ومن خلفه.. فلم تبق حوله إلا الفئة الصابرة المؤمنة التي نصحته بالخروج إبقاء عليه وعلى الحركة التي يرعاها، لأن السلطات الفرنسية كانت عاقدة العزم عليه مهما كلفها الأمر، وكذلك فعلت برمز الحركة الوطنية في الجزائر، وفي نفس السنة الأمير خالد الجزائري حفيد الأمير عبد القادر الجزائري."[76]

سادسا: الشيخ الثعالبي في العراق:

ودع تونس بخطاب مؤثر[77] - وسوف لن يعود إلى تونس إلا بعد أربع عشرة سنة من هجرته القسرية- فرحل إلى إيطاليا، ففرنسا، ثم إلى مصر، ثم إلى الحجاز، ثم استقر به المقام في العراق، حيث سبقته شهرته وانتدب للتدريس بجامعة آل لبيب في بغداد بين سنتي 1925-1930، وربما كان اختياره للعراق هو مكانة هذا البلد في وجدانه، ولأسباب سياسية أيضا،

---

74 جريدة الشورى. مصدر سابق، 1925/5/14.

75 الثعالبي، عبدالعزيز. **من آثاره وأخباره في المشرق والمغرب**، مصدر سابق، ص69.

76 الثعالبي، محمد عبدالعزيز. **من آثاره وأخباره في المشرق والمغرب**، مصدر سابق ، ص69.

77 الفورتي، البشير. **أعلام النهضة الأدبية**، مصدر سابق ص39.

فقد يجد هناك متنفسا للحركة والتخطيط والاستفادة من تجربة البلاد.

وكان يرى بعد الزيارة أن العراق أنها "بلاد غنية، لها مستقبل حسن إذا وجدت الأيدي التي تساعد على استثمار منابع الثروة فيها،"[78] أما البلاد المتاخمة للعراق آنذاك فكانت تعاني من سوء إدارة – كما هو شأن عالمنا الإسلامي والعربي في تلك السنين واليوم– فيصفها شيخنا الثعالبي قائلا: "في جزيرة العرب ثروات كبيرة، وأغلب تجارة الصادر والوارد في يد أهلها، تزاحم بعض عناصر من أهل فارس في البحرين ودبي، وقليلون من الهنود، ومغاصات اللؤلؤ تدر نحو خمسين مليون روبية في كل عام، ولكن رؤوس الأموال الكبيرة تودع في بنوك الهند، دون أن تنتفع بها البلاد في إخراج مشاريع جديدة أو إنشاء أعمال تزيد الربح".[79] وهؤلاء يصدق فيهم وصف الشيخ الثعالبي.." زعموا أن الثروة قسمة إلهية يجب قبولها بالرضاء والتسليم!"[80] وهؤلاء المستسلمون الذين سلموا ثرواتهم للهنود – كما سلم العرب والمسلمون اليوم أموالهم للأمريكيين والإنكليز ويهود– لا يعلمون أن "الأمم في العهد الأخير لم تبن الأساطيل العظيمة إلا لتعزيز الشؤون الاقتصادية وترقية حالها."[81]

عندما كان الثعالبي في عدن باليمن السعيد كتب بتاريخ 1924/10/11 يقول –وكأنه قد حز في نفسه خروجه من تونس الذي أفرح أعداءه–: "نعم.. يجب أن أبقى في تونس، وأستمر على الجهاد والتضحية حتى ندرك ساعة النصر، ونحرز على الفوز. ولكن لماذا أخرجت؟ لم أخرج أشرا ولا بطرا، بل خرجت مضطرا وكلكم تعلمون ذلك، أم تريد أن أكاشفك بالسر المخجل؟ وأنا آنف أن يخطه قلمي، لكن تدوينه واجب لرجل مثلي، حياته اليوم ليست له، بل هي للأجيال والتاريخ. إن تونس التي كنت أنفق عليها مواهبي، وأغذيها من روحي، تركتني على أسوأ ما يكون في حالات الاضطراب وأظهرت عجزها التام عن تغذية جسمي، فخرجت ألتمس الرزق في غيرها، بعد أن آليت أني سأواليها بما عودتها به من الأغذية الروحية، وقد فعلت وما فترت عنها أبدا."!

نعود لنقول إن عبدالعزيز الثعالبي عندما وصل إلى بغداد كان صيته الطيب وشهرته التي

---

78 الشورى 1926/5/21.

79 المصدر السابق.

80 محاضرات الثعالبي، ص210.

81 محاضرات الثعالبي، ص232.

خرقت الآفاق قد سبقاه بسبب مواقفه المدافعة عن الأمة الإسلامية والعرب، معاديا الاحتلال الظالم. وعندما وصل رحب به كبار العلماء والأعيان والصحافة، وأقيمت بهذه المناسبة حفلة تكريمية له تضمنت كلمات وقصائد، وكانت مما قيل فيه قصيدة تعدد مناقبه وتصف مواقفه الجريئة ألقاها الشاعر الشهير معروف الرصافي، مطلعها:

أتـــونس إن في بغـــداد قومـــا ... تـــرف قلـــوبهم لـــك بالـــوداد
ويجمعهـــــم وإياك انتســـــاب ... إلى مـــن خـــص مـــنطقهم بضـــاد
وديـــن أوضـــحت للنـــاس قـــبلا ... نواصـــع آيـــه ســـبل الرشـــاد
فـــنحن علـــى الحقيقـــة أهـــل قـــربى ... وإن قضـــت السياســـة بالبعـــاد
ومـــا ضـــر البعـــاد إذا تـــدانت ... أواصـــر مـــن لســـان وٱعتقـــاد
وإن المســـلمين علـــى التـــآخي ... وإن أغـــرى الأجانـــب بالتعـــادي
أتـــونس إن مجـــدك ذو انتمـــاء ... إلى عليـــا (نـــزار) أو (إياد)
لنـــا (بثعاليبـــك) خـــير ملـــق ... علـــى أشـــتاتنا حبـــل اتحـــاد
وأكـــبر حامـــل بيـــد اعتـــزام ... لحـــب بـــلاده علـــم التفـــادي
وأسمـــى مـــن سمـــا أدبا وعلمـــا ... وأفصـــح مـــن تكلـــم عـــن ســـداد
فـــتى صـــلحت عزائمـــه وجلـــت ... عـــن الروغـــان في طلـــب المـــزاد
تغـــرب ضـــاربا في الأرض يبغـــي ... مـــدى مـــن دونـــه خـــرط القتـــاد
فأوغـــل في المفـــاوز والمـــوامي ... وطـــوف في الحواضـــر والبـــوادي
وكـــان طوافـــه شـــرقا وغـــربا ... لغـــير تكســـب وســـوى ارتفـــاد
ولكـــن ســـاح لاســـتنهاض قـــوم ... حكـــوا بجمـــودهم صـــفة الجهـــاد
فيـــا (عبدالعـــزيز) أقـــم عـــزيزا ... بحيـــث الأرض طيـــبة المـــراد
يحييك (العراق) بساكنيـه ... تحية مخلص لك في الوداد

كان الناس في العراق " يتحدثون عن هذا الزائر الكريم الذي حط في أم العواصم بعد أن شرق وغرب، وصاول المستعمر ونازل الدخيل، وكانوا يكبرونه ويقفون له قياما ويفسحون له في الطريق عندما يخرج من داره في محلة (البقجة) في بغداد القديمة، فيلمحون طربوشه القصير

ذا اللون الأحمر القاني الذي وضع كيفما اتفق على رأس ضخم، وتتحول الأنظار رأسا إلى وجهه العريض الواسع بقسماته المنسجمة بعينين وديعتين يتطاير منهما كهرباء الذكاء، وكان يجيب تحية القوم المعجبين الذين قاموا له من المقاهي التي كانت تملأ الساحة الكبيرة في محلة البقجة، وقد أحضروا له عربة توصله إلى الأعظمية حيث كان أستاذا لأول جامعة في بغداد بعد تأسيس الحكم الأهلي، لقد رأوه عن كثب، وشبعوا من متعتهم بشخصه المهيب بخاصية لحيته الجميلة التي اختلط (رزها بماشها) كما يعبر باصطلاحهم المحلي، وكانت في يده عصا طويلة هي رفيقته في حله وترحاله."[82]

ويذكر الأستاذ محمود الحسامي أنه نزل في أرقى منازل بغداد، وكان يعد طعامه بيده على الطريقة التونسية. وكانت له علاقات طيبة مع كبار الأساتذة والشعراء هناك، له في قلوبهم منزلة عظيمة وجليل احترام، وكان زينة المجالس، يسحر السامرين بحلو حديثه ودقيق استنباطه وصائب آرائه. ومما يذكر أنه حدث خلاف- دون الخصومة- بين الشاعرين الشهيرين معروف الرصافي وجميل صدقي الزهاوي، حار القوم في إعادة المياه إلى مجاريها بينهما. وبعد أن أعياهم الحل رجعوا إلى الثعالبي، فخطر بباله طريقة طريفة وهي استضافة الشاعرين إلى أكلة تونسية [وأظنها أكلة "الكسكسي" الأكلة الشعبية المعروفة].. فلبيا الدعوة وتصالحا[83] وهذا دليل على مكانة الشيخ الثعالبي بين القوم.

ومما يروي طلابه عنه في الجامعة الأولى أنه كان حيويا نشطا ذلق اللسان قوي الشخصية، وأنه كثيرا ما يعرج إلى السياسة العامة وأعمال الفرنسيين في بلاد العرب، خصوصا في تونس والمغرب العربي وفي سورية ولبنان، ويروي لهم مشاهداته في تركيا والهند وأقطار الجزيرة العربية وغيرها، وما فعلته يد المستعمر الغدار. ولا ينسى طلابه ولعه بتدخين الشيشة (النرجيلة) في ساعة الفرصة بين الدروس، كما يذكرون سرعة بديهته وقوة حجته. وقد نشرت محاضراته في مجلة (جامعة آل البيت) وينعت كاتبها بأسم الرحالة التونسي، أو الزعيم التونسي، الشيخ... وما شابه ذلك. ويذكر الحسامي أيضا أنه بعد إغلاق باب الكلية، عين بوظيفة مفت أو نحو هذا، وقد بث في الوزارة روحا جديدة، إذ

---

82 الحسامي، محمود العبطة. **عبد العزيز الثعالبي رائد الحرية والنهضة الإسلامية**، مصدر سابق، ص146-147.

83 المصدر السابق، ص151.

دعا إلى العمل والبعد عن الأمنيات والخيال. وكمثال على نهجه في العمل أنه قدم تقريرا شهيرا، خلاصته: أنه فاجأ مدرسة أهلية يهودية بزيارة أحد صفوفها، فشاهد الطلاب يدرسون درسا في مسك الدفاتر الحسابية، فأكبر الشيخ الثعالبي الفكرة، وأراد مفاجأة مدرسة رسمية بزيارة أحد صفوفها أيضا، فرأى طالبا ينشد قصيدة أولها: "سواي يهاب الموت أو يرهب الردى" وهو يشير ويؤشر ويمثل وينفخ صدره، وكان المعلم يستحسن والطلاب يهتفون ويصفقون."![84]

سابعا: الجامعة الإسلامية في فكر الشيخ عبدالعزيز الثعالبي:

كانت فكرة الجامعة الإسلامية حاضرة دائما في بال الثعالبي، فلم يشغله المنفى و"الوطن" عن طموحه الكبير، إذ كان يرى أنه أينما كان هناك إسلام فثمة وطنه، وأينما كان هناك عقل متحرر فهناك داره وأهله. وكان يرى أن الاحتلال أينما وجد لا بد من محاربته (في ليبيا، والجزائر، وتونس، والعراق، وسوريا، ولبنان، وفلسطين، والهند...). ولم ييأس بالرغم من تردي الأوضاع السياسية والتربوية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية في العالم الإسلامي.[85]

---

[84] المصدر السابق، ص147-149.

[85] إن التدهور الشامل لكافة الصعد هو حالة عامة في بلاد العرب والمسلمين، وكان الشيخ الثعالبي واعيا بهذا الأمر تمام الوعي، إذ كان يرى- كما يذكر هو نفسه أن التعليم العصري مفقود في اليمن والهند، وبورما، وسنغافورة، ولبنان، حيث إن قبول التلميذ في هذا البلد الأخير (لبنان) وغيره مشروط بتعليمه "-ولو كان مسلما- الدين المسيحي، ودخوله في جملة التلاميذ المسيحيين إلى الكنيسة في كل يوم للعبادة. ويوجد في بيروت جملة من هذه المدارس وفيها بعض أبناء المسلمين، منها المدرسة اليسوعية، ومدرسة المطران المارونية، وهم لا يُلامون في ذلك، لأنهم يفعلون في مدارسهم ما يوافقهم، وإنما اللوم العظيم على المسلم الذي يرضى بدخول ولده هذه المدارس"، لذلك فـ "المدارس في شكلها الحالي لن تفيد المسلمين في شيء، بل ربما تكون من أقوى العوامل لتبلبل أفكارهم، وتقطع آمالهم . .. والسبب في ذلك عدم وجود منهاج واضح للتعليم". ويقول الثعالبي أيضا في سياق= =تحليله لحال الأمة: "فالعرب الواقعون على شاطئ البحر الأبيض المتوسط مثل شمالي إفريقيا ومصر وسوريا وكذلك العراق... صاروا يفكرون في العالم تفكيرا أقرب إلى التحقيق وإلى الحياة من غيرهم. وهناك بقية "الأمم" العربية، وهي تنقسم إلى قسمين: قسم فيه شبه استقلال داخلي، ولكن ليس له كيان خارجي، مثل سكان جزيرة العرب وجنوبها، ويدخل في ذلك نجد والحجاز واليمن، فشعور هؤلاء لا يتجاوز محيطهم ولا ينفذ إلى الفكرة العالمية، وروحهم الاجتماعية لا تزال في المهد، لأنهم لم يتثقفوا ثقافة عالية تمكنهم من أن يفكروا ويقارنوا ويستنتجوا لكي يستطيعوا أن يوَلدوا من ذلك كيانا خاصا بهم. وكل ما عندهم كيان لا يتعدى تقاليد الأمم الأولية. ثم هناك القسم الثاني ويشمل المناطق الأخرى الواقعة على البحر

وبرغم ظهور "حزب الاتحاد والترقي" العنصري في تركيا- مثلما ظهرت حركات قومية عربية عنصرية أيضا التي فجرت "ثورة عربية كبرى" مزعومة- وهما من علامات تفكك الخلافة الإسلامية العثمانية. ولم يثنه ذلك عن حضور مؤتمر الخلافة الإسلامي في القاهرة (مايو 1925)، إيمانا منه بأن " الأمة التركية سترجع إلى الإسلام. وتكون أشد تعصبا للدين الإسلامي."[86] وكان هذا المؤتمر قد انعقد تلبية لدعوة شيخ الأزهر، وقد مثل فيه الشيخ الثعالبي العراق. بل إن الثعالبي كان عضوا مؤسسا لمؤتمر القدس (ديسمبر 1931) الذي حضره العديد من أعلام المسلمين في العالم منهم: محمد إقبال (من الهند)، إبراهيم أطفيش (الجزائر)، محمد بهجت الأثري (العراق)، رشيد رضا (لبنان). وكان الثعالبي قد أوجس النكبة مبكرا (1927) لما أحس بتفكك فلسطين استصرخ المسلمين والعرب "عسى الله أن يبعث في قلوبهم العطف والرحمة على المنكوبين."[87] لكن لما أيقن الخيانة والعمالة من حكامهم الذين تآمروا مع يهود ضد فلسطين وشعبها، رثى فلسطين في عبارات مؤثرة: "عزاء إليك يا فلسطين المفجوعة، وعزاء لكم أيها الفلسطينيون المنكوبون، ومهما كان يأسي عظيما في المسلمين الذين أعرفهم معرفة ذاتية، فلن أيأس من الله مقلب القلوب!"[88]

كانت فكرة الجامعة الإسلامية – في ذهن الشيخ الثعالبي- هي المسيطرة على فكرة الوحدة العربية[89] التي كان يؤمن بها هي الأخرى لكن على طريقته الخاصة، وليس على حساب الجامعة الإسلامية، بل ذهب إلى حد تفنيد قول القائلين بأن العرب أحق بالخلافة الإسلامية (سبيل الرشاد 1896/3/29) وهي فكرة قال بها كثير من معاصريه، بل إنه كان ضد ما سمي بـ" الثورة العربية الكبرى" المزعومة، إلى درجة أنه آخذ المسمى الشريف حسين (1856-1931) على "ثورته"، لأنه- حسب رأي الثعالبي- " ثار على الترك، وقطع ما أمر

الهندي والخليج الفارسي (كذا !)، وهي الواقعة تحت النفوذ الأجنبي، فإن حالتها تختلف على نسبة اتصالها أو بعدها عن الأجانب، فالكويت والبحرين ودُبَي والمكلا ولحج، أقربُ إلى الشعور بالحياة من البلاد العربية الأخرى التي ليست لها صلة بالعالم".

86 جريدة الشورى 1929/4/3

87 جريدة الشورى 1927/8/11.

88 جريدة الشورى 1927/2/3.

89 نشابة، هشام. بوخضرة، مسعودة. **عبد العزيز الثعالبي ودوره في الإصلاح الإسلامي**، مصدر سابق، ص99-113.

الله به أن يوصل بين العرب والأتراك."[90]

بعد أربع عشرة سنة من غيابه عن تونس قضاها متنقلا بين كثير من أقطار العالم، عاد الشيخ الثعالبي إليها في شهر تموز 1937 ليواجه محنة سياسية أخرى، حيث دب الشقاق بين الجماعة الدستورية، فيقول: " لما شجر الخلاف في الحزب الحر الدستوري التونسي أواخر سنة 1933، لم أتصل بأخباره إلا في فبراير سنة 1934 وأنا في (بورمة) وقد شق علي كثيرا أن ينقلب الحزب الذي لاقيت في تأسيسه أشد الآلام من سنة 1918 إلى سنة 1923، وكان قصدي من تأسيسه أن يكون أداة صالحة لخدمة البلاد، وتوحيد جهودها على الخير، ولم شعثها لاسترجاع حقها السليب. فعز علي أن ينقلب أداة شغب، ومثارا للفتن الداخلية بين أهل الوطن الواحد، وكانت رسائل المواطنين تلاحقني من قطر إلى قطر في طريقي إلى الصين، وكل هذه الرسائل تطالبني بأن أسرع بالعودة إلى الوطن لإنقاذ الموقف وإصلاح ذات البين، وإعادة التيار القومي إلى مجراه الطبيعي". وكان الصراع الرئيس ضد الاستعمار وليس ضد من ناصبوه العداء من أبناء جلدته، إذ كان لا يولي خصومتهم اهتماما إلا بمقدار دفع أذاهم عن نفسه، لكن هذه المرة- بعد عودته من بغداد- وجد نفسه مضطرا للدخول في حرب شعواء ضد المرتزقة، "ظاهرها ضد الخارجين على الأمة، وباطنها ضد الاستعمار الذي جندهم ضدي وصمد بهم لقتالي، وكانت الأمة تحسبهم- قبل عودتي- من شيعتي وأعواني، وليس من الهين على امرئ أن يكافح من يعدهم شيعة له وأعوانا، فقد خدعوا العامة بانتمائهم إلي وتآمروا مع السلطة علي، وأشهروا حربا باغية على الفئة الموالية الباقية في عهدي ونفروا منها الدهماء، فنفروا معهم وهم لا يشعرون بما يضمر لهم من مكائد."[91]

ثامنا: مؤتمر الوداع الأخير:

كانت في حياة الثعالبي محطات تاريخية شكلت مفاصل مهمة في تاريخ الأمة

---

[90] جريدة الشورى 1924/12/10.

[91] من رسالة من أحمد شفيق باشا، بتاريخ 1937/10/21، ضمن كتاب: **عبد العزيز الثعالبي رائد الحرية والنهضة الإسلامية**، مصدر سابق، ص172.

الإسلامية، هزم خلالها وانتصر، وصال وجال وشرد، وحاصره الاحتلال، وحاصر حصار الاحتلال، وأرهب العدو لكنه لم يرهب منه يوما. كانت يده نظيفة لا تعرف إلى القتل والغدر سبيلا، كان مميزا في نهجه السياسي عن غيره من الساسة الذين عاصروه أو جاؤوا من بعده، بل إنه تعرض– عند عودته إلى تونس في هذه الفترة– لمحاولة اغتيال مرتين خلال فترة قصيرة " أثناء حفاوة الشعب باستقبالي في عاصمتين من عواصم الأقاليم حين زرتها."[92] وكانت عودته إلى تونس بناء على نصيحة الأستاذ أحمد القرقوري رئيس الحزب الحر الدستوري في مدينة صفاقس عاصمة الجنوب، فرد عليه الشيخ الثعالبي شاكرا "على العناية اللطيفة التي أبديتها بشأن الرجوع إلى الوطن، وأملي أن أراك في العاصمة يوم قدومي."

كانت رغبة القرقوري في عودة الثعالبي من الخارج إلى تونس نابعة من إيمانه بأن الثعالبي هو رجل الجهاد والمواقف والمهمات الصعبة، إذ كان الخلاف قد احتد بعد "القطيعة التامة بين فريقي الحزب الدستوري سنة 1934 ومؤتمر بلدة "قصر هلال" الذي فصل فيه الشبان المحافظون من الحزب."[93] وبالرغم من خلافه مع المحافظين إلا أن العلامة الثعالبي ساندهم هذه المرة، لأنه يلتقي معهم هنا حول فكرة الاستقلال، في حين كان "المعتدلون" قد فرطوا في العديد من المطالب مع مرور الوقت،[94] وكان هذا الأمر يحز كثيرا في نفس الثعالبي المخلص للأمة ولا يجد بدا إلا أن يصفهم بما هم أهل له، فيصفهم بأنهم "مجرمون ظهروا في غفلة الدهر بعد خروجي من الوطن، فخذلوا الشعب!"[95] كان هذا واقعا، وبخاصة بعد أن فقد الشيخ الثعالبي صديقه علي باش حانبة الذي أخذته يد المنون رحمة الله عليه. فلم ينكفئ الثعالبي أو يهاجر هذه المرة، بل طفق يطوف في البلاد، وكان يستقبل بحفاوة وحرارة في كل مكان يحل به، وكاد يكمل رسم المشهد السياسي لصالحه لولا أحداث 9 /4/ 1938 التي أفسدت عليه كثيرا من المكاسب لصالح الأمة، إذ أعلن

---

92 جريدة المصري، القاهرة، ع195 (1938/6/11).

93 الحسامي، محمود العبطة. **عبد العزيز الثعالبي رائد الحرية والنهضة الإسلامية**، مصدر سابق، ص358.

94 المصدر السابق، ص352 .

95 من رسالة الشيخ الثعالبي إلى أحمد القَرقوري بتاريخ 1938/6/4.

الاحتلال "حالة الحصار في البلاد"، و"نصب المحاكم العرفية"،[96] كما عطلت "جميع صحفنا العربية والفرنسية باختيارنا، وأغلقنا نوادينا إلى أن ينتهي هذا الإعصار."[97] وبالرغم من وحشية المخربين الفرنسيين التي كانت تغطي الحقائق بصور مختلفة وأساليب قهرية، إلا أن الشيخ الثعالبي، هذا الربان الشجاع، ظل يجاهد ويخوض عباب محيطات السياسة والمعرفة من أجل الأمة ولم تغره المغريات ولم ترهبه سجون المحتل وكيد العملاء.

بعد صراع طويل ومضن ضد الاحتلال، كسر خلاله شيخنا الثعالبي شوكة هذا العدو الفرنسي والأجنبي، آوى هذه المرة إلى بيته متفرغا إلى التأليف والتحدث عن العلوم والمسائل العامة، ليقينه بأن الواجب يدعوه بأن يترك لهذه الأمة أثرا مكتوبا للأجيال التي تأتي من بعده. ولولا بعض الفصول التي كان يكتبها بين الحين والحين بجريدة "الإرادة" الناطقة بأسم الحزب القديم، ما شعر الشعب بوجوده بينهم. وبالرغم من هذه الظروف فإنه لم يستسلم، بل كان منزله منتدى يحضره المنتمون للحزب القديم وأعضاء هذا الحزب، ويحاضر أحيانا في التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية.[98]

لقد ظل طوال حياته لا يستكين للأعداء ولا للمرض الذي عل جسمه. كان لا يثنيه استبداد محتل غاشم ولا ألسنة أو أقلام المتآمرين والمخذلين، الذين يسميهم هو نفسه بالمأجورين. وكان – كما يذكر الدكتور صالح الخرفي–: يسابق الأجل في أواخر أيامه، ليصل بالحزب إلى الغاية الأسمى التي بينها من يوم تأسيسه قبل ربع قرن، وهي استقلال تونس وفق دستور شوري حر، فأشار بعقد مؤتمر سري والحرب العالمية الثانية لا زالت تدور رحاها. بل ليس همه حزب أو استقلال تونس –كما قال الخرفي هنا– بل كان همه حرية الأمة الإسلامية ووحدتها ورفاهيتها وتقدمها العلمي.

عقد المؤتمر –كما تذكر مخطوطة (محمد الحبيب الشبلي) عن "تاريخ الحركة الوطنية"– في شهر سبتمبر 1944 قبل أسبوع واحد من وفاة الشيخ الثعالبي، وما سنحت له الفرصة

---

96 المصدر السابق.

97 المصدر السابق.

98 محفوظ، محمد. **تراجم المؤلفين التونسيين**، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1982، ج1، ص290.

للحضور، إذ كان إذاك على فراش الموت. عقد المؤتمر السري للحزب في منزل الحكيم/ أحمد بن ميلاد، في زنقة الرياض بالحلفاوين، كما روي للدكتور صالح الخرفي ولزوجته، واختتم المؤتمر أعماله عن قرار حاسم وهو: "المطالبة بالاستقلال التام" عن فرنسا. وبما أن الظروف الدولية لم تكن مواتية، إذ كانت الحرب العالمية الثانية دائرة كما سبق الذكر، فقد فوضت لجنة الحزب التنفيذية في تحديد الوقت المناسب للإصداع بهذا القرار قرار الاستقلال.[99]

انتهى هذا المؤتمر ومعه ودع الشيخ الثعالبي العالم الدنيوي إلى الرفيق الأعلى، بعد سبعين سنة قضى ثلثها في الترحال في مناكب هذا العالم الفسيح مجاهدا في سبيل الله، وبقيتها في مجابهة المحتل الظالم وعملائه الجبناء الذين آثروا السلامة مقابل التنازل عن الأرض والعرض، بل التنازل عن كل شيء، وهذا ما يريده الاحتلال في كل عصر وفي كل مصر.

هذا جزء من حياة الشيخ محمد عبدالعزيز الثعالبي الطود الشامخ، وبحسب وصف الأمير شكيب: بحر لا ساحل له. وإن الباحث في سيرته ليحس بأنه لم يوف الرجل حقه، فهناك الكثير من الجوانب التي لا نستطع الإلمام بها في مقال، إذ له في كل مسألة نظرة ثاقبة: في التاريخ والأمم والسياسة والتعليم والفلسفة والاجتماع السياسي والديني، وله مؤلفات في التفسير والدين والسيرة [(100)]. وقد أثر بآرائه في معاصريه وممن جاؤوا بعده إلى يومنا هذا. وقد كان رئيس تونس السابق الحبيب بورقيبة من المتأثرين بشخصيته وبأفكاره، ويقول –في هذا السياق– عن كتاب الشيخ الثعالبي (**تونس الشهيدة**) فيما يرويه "ج. لاكوتور" في كتابه "خمسة رجال وفرنسا" (ط. باريس 1961): "... لقد أخفيت الكتاب تحت غطائي، وطالعته خلسة، وأنا متأثر به شديد التأثر. فاطلعت على ما ورد فيه من أرقام، وما تضمنه من معلومات عن الضحايا والفقر. وشعرت بما جره لنا الاستعمار من ذل وهوان،

---

99 الثعالبي، عبدالعزيز. **من آثاره وأخباره في المشرق والمغرب**، مصدر سابق، ص70.

100 مؤلفات الشيخ الثعالبي: تاريخ شمال إفريقيا، تاريخ الإسلام في الهند (3 أجزاء)، الدولة الأموية وأسباب سقوطها، المنبوذون في الهند، الرحلة اليمنية، الرحلة الجاوية (جاوة والصين)، معجز محمد ﷺ، دار الأرقم، دروس الفلسفة الإسلامية، تونس الشهيدة، روح التحرر في القرآن، المذكرات (بقلمه)، والعديد من المقالات المنشورة في مجلات وجرائد تونسية وعربية، ومحاضرات وخطب سياسية في العديد من بلدان العالم، ورسائل تبادلها مع رشيد رضا، وعبدالرحمن الكواكبي، وشكيب أرسلان، ومحمد كُرد علي، ومعروف الرصافي، وعبدالقادر المغربي، والزعيم الهندي محمد علي جناح، وغيرهم...

وكنت أبكي!". وقال عنه – سنة 1937– الشيخ عبدالحميد بن باديس (1889– 1940): "عبدالعزيز الثعالبي.. هكذا أذكره، دون لقب أو صفة. فإن هذا الاسم لم يبق علما على ذات مشخصة، تحتاج إلى صفاتها وألقابها، بل صار في أذهان الناس علما على الرجولة والبطولة والزعامة، وعلى التفكير والعمل والتضحية، وعلى الإسلام والشرق والعروبة، وعلى وحدة إفريقيا.. فإذا قلت (محمد عبدالعزيز الثعالبي) قلت هذا كله." إن كل من عرف الشيخ الثعالبي من قريب أو من بعيد لا يمكن له إلا أن يقول كما قال هو عن نفسه سنة 1924: "أظنكم تعلمون، أنني كنت صادقا مخلصا، ما تطرق الهوى قط لفكري أو عملي، فأنا.. أنا، منذ نشأت إلى اليوم. ما وضعت يدي أبدا في حكومة. ولا واليت ظالما، ولا أيدت حاكما مستبدا. بل نشأت وعشت شابا وكهلا، وها أنا على أبواب الشيخوخة، قريع الاستعمار، عدوه المبين!"

بعد رحلة طويلة مثقلة بهموم الأمة الإسلامية وأوصاب الحياة ومليئة بالجهاد، وكلوم المحتل وظلمه، وغدر القريب ونكران ود الصحبة... بعدها أناخ راحلته بهدوء الفجر، حيث صافحته يد المنون في صباح يوم الأحد، الساعة العاشرة 14 شوال 1363هـ/ 1 أكتوبر 1944م، فرحل محمد عبدالعزيز الثعالبي إلى ربه مطمئنا بوفائه وصدقه لما عاهد الله عليه. ووري جثمانه الطاهر الثرى في مقبرة الجلاز، وقد أبنه قبل الدفن كل من المشايخ والأساتذة: صالح فرحات، ومحمد الشاذلي خزندار، وصالح بن يوسف، ومصطفى خريف، وأحمد بن ميلاد، والحبيب شلبي، وعمر الهمامي. وأم الصلاة عليه الشيخ محمد الصالح بن مراد. ورثته العديد من الصحف العربية كـ"الزهرة" و"الأسبوع" و"الثريا" و"الإرادة" وغيرها.

هذه بعض من محطات حياة المجاهد محمد عبدالعزيز الثعالبي ، لكن ما يؤسف له هو أن هذه الشخصية الفذة مجهولة ومتجاهلة في مناهج الدراسة الجامعية والثانوية وفي وسئل الإعلام. قليل هم المخلصون لمجاهدي الأمة الذين يذكرونه اليوم بمقالة أو ندوة في سويعات متسللة من التاريخ. فالرجل كما عرفته من خلال مؤلفاته لا يقل شأنا عن أولئك الذين أشبعت كتبهم تحليلا ونقدا حتى إن أفكارهم أولت في اتجاهات لم يلتفتوا إليها أصلا، في حين يتجاهل رجل أفكاره واضحة، تعالج كثيرا من أمراض الأمة كأنه

يعيش اليوم بين ظهرانينا نظرا لعلمية تحليلاته وعمق تفكيره، فأفكاره أكبر من أن تعرض في صفحات قلائل أو جمل عابرة. فللرجل من الفكر ما يجعله جديرا بالاهتمام درسا وبحثا. رحم الله العالم المجاهد محمد عبدالعزيز الثعالبي رحمة واسعة.. وإنا لله وإنا إليه راجعون.